رواية

جيزوالدو بوفالينو

مكتبة بغداد

لَبْس

ترجمة: بسام حجار

الكتاب

لَبْس

المؤلف

جيزوالدو بوفالينو

المترجم

بسّام حجار

الطبعة

الأولى، 2001

عدد الصفحات: 192

القياس: 14 × 21.5

جميع الحقوق محفوظة

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 303339 ـ 307651

فاكس: 305726 ـ 2 212+

Email: markaz@inter.net.ma

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لَبْس

رواية

جيزوالدو بوفالينو

ترجمة: بسام حجار

المركز الثقافي العربي

هذه هي الترجمة العربية الكاملة لـ:

Qui Pro quo

GESUALDO BUFALINO

(Roman)

عن الفرنسية إصدار دار نشر

جوليار باريس 1993

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الشخصيات

ميدار آكيلا	ناشر
سيبريين ميمونه	زوجته
استير سكامبورينو الملقبة آغاتا سوثبي	سكريترته؛ الراوية
غيغو ميمونه	صهره وشريكه
آبولونيوس بلمندو	محام
ماتيلدا غارو	زوجته
لييتا	ابنة ماتيلدا من زواج أوّل
ليديا أوريولي	مديرة سلسلة في دار النشر
جانو (جاك؟) أوريولي	إبن ليديا
آموس(عاموس) سودو	نحات ورسام
دافنيه دوڤال	رسامة نحّاتة

دون جوليان نيسڤيكو	تاركٌ للرهبانية، مؤلِّف
ماكسيمليان كورّو	كوميسير في الشرطة القضائية
هايلاسيلاسي	خادم أسود
كازابيني	معاون
اشيل	تمثال نصفي

مرافق مجهول الهوية، خدم، صحافيون، مصوّرون، فضوليون.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الكاتب في سطور

جيزوالدو بوفالينو مواليد كوميزو (صقلية) عام 1921؛ عمل في الجامعة مدرِّساً للأدب المقارن، وفي الترجمة، إذ نقل العديد من الكتاب الفرنسيين إلى الإيطالية (ج. ب توليه، بودلير، فيكتور هوغو وغيرهم...)، قبل أن ينصرف إلى الكتابة وهو على مشارف الستين.

لدى صدور روايته «أكاذيب الليل» احتفى به النقَّاد ووصفوه بأنّه «شكسبير صقلية» إشارةً إلى خياراته الأسلوبيَّة واللغوية المميّزة. ويُعتبر إلى جانب شاشا وكالڤينو وموراڤيا، ممثلاً لاختبار مختلف وفريد في الرواية الإيطالية الحديثة. له إلى جانب «أكاذيب الليل» (التي نالت جائزة «ستريغا» العام 1988، وهي أبرز الجوائز الأدبية الإيطالية)، «زارع الطاعون» و«لَبْس». ترجمت أعماله إلى عددٍ كبير من اللغات العالميَّة.

«لَبْس» هو، إلى اليوم، العمل الأوّل لبوفالينو الذي ينقل إلى العربية.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

I

منظر على البحر مع أشكالٍ ووجوه

إنّ الفكرة القائلة بأنَّ مجرى التاريخ، بحسب ظنِّ بسكال، قد يكون رهناً بخصائص شمّية، من شأنها، في العادة، أن تزكم أنْفَ المؤرِّخين. غير أنَّ هؤلاء مخطئون. ذلك أنَّ مصيري، ولا أقول مصير العالم الذي لا شأن لي به، كان ليختلف كلَّ الاختلاف لولا أنَّ طارئاً، من أتفه ما يكون، هو نَخَرٌ في أحد أضراسي الأمامية، قد قادني، ذات يوم، على عَجَل، إلى ردهة الانتظار في عيادة الدكتور كونشيابيلّي؛ حيث انكببتُ، لتمضيةِ فترة الانتظار وتسرية الحَصر على قراءة الإعلانات المبوّبة في صحيفة الـ «مِسّاجيرو»، فإذا بي اغتبطُ فجأةً لإعلان عن وظيفة شاغرة لسكرتيرة في دار نشر ميدارد آكيلا وشركاه، 16 شارع كليوباطرة، روما.

ولْنَقُل منذ البداية، وبوضوح، أني مجازة من قسم الموسيقى والفنون المشهدية في بولونيا؛ وحصَّلتُ معارف لا بأس بها في ميادين المسرح والسينما والجاز والموسيقى الكلاسيكية والسيميولوجيا... كما أني(أو أحسبُ أني) ذكية،

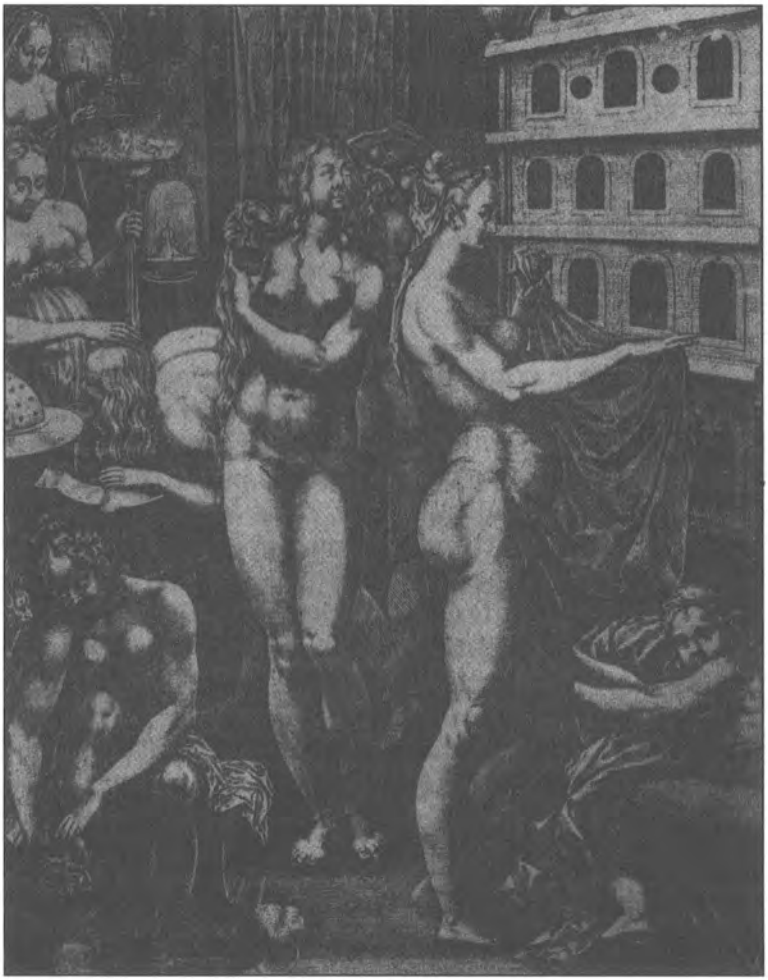

... مستلقية تحت المظلّة العملاقة، حيال ضيوف الدار،
وهم في الأغلب من النساء الفاتنات...

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وماكرة، ولم أُغدَم طَرَفاً من دربة اللسان والحذق. أمّا عن الحُسن فلا أزعم أني بهيّة الطلعة، بل، الأحرى، قبيحة، أو بَشِعة أو شنيعة أو ما طابَ لكم من هذه النعوت، إلى صيتٍ عَلِقَني مثل جلدي بأني مصابة بالبرودة الجنسية، وهو الأمر الذي قدْ يُحتسب لصالحِ المُرشّحةِ لوظيفةٍ إذا كان رب العمل متزوجاً وإذا كان أمر اختيارِ الموظفين حكراً على زوجته. باختصار، لم تمضِ ساعات معدودة حتّى اصطفيت لملء الوظيفة الشاغرة: ولم تمضِ شهور إلاّ وأصبحتُ في عداد مَنْ لا يُستغنى عنهم، بما في ذلك أيّام الأعياد، أقضي إجازاتي بصحبة المفكّرة والقلم، في دارة الرئيس الصيفية الخرافية، أي الفيلاّ، والأحرى الفيلاّت، التي سميَّت، تيمناً بڤينيسيا بالأدو، الـ «مالكونتونت».

ما يمكن وصفه، بالإجمال، بأنه ساعات عملٍ إضافية من شأنها أن تثلج قلب ستاكانوف، وتثير استياء النقابة. لكنّه أيضاً من حُسْنِ طالعِ فتاةٍ مثلي، عزباء في الثامنة والثلاثين من عمرها لا تُحسِنُ من أمور الدنيا شيئاً، قانعة بحلج وقتها، من الطمث إلى الحيض، مانحة نفسها، خلال شهر آب، أسبوعاً مقتضباً على الأدرياتيكي في نُزلٍ مزدحم بالمصطافين، دون أن تعلم يقيناً ما إذا كان من اللائق أو غير اللائق أن تُعَرِّض شحوب جلدها للهيبِ الشمس ونفور الفتيان...

هذه المرّة لا مجالَ لمثلِ هذه الهواجس إلا إذا كان هاجساً ذلك الشعور الخَفِر بالحسد الذي ينتابني، مُستلقية تحت المظلّة العملاقة، حيال ضيوف الدار، وهم في الأغلب من النساء الفاتنات اللواتي يعْبُرْنَ من أمامي، لا مبالياتٍ كلبوات السيرك. وإذ ذاك أنكفئ إلى قوقعةِ بُرْنُسي طلباً للخلاص ولكي أجبه قسوة

صدورهنَّ العارية بِسُكونِ القلب المستطير.

ماذا عساني أفعل غير ذلك في مثلِ حالتي تلك، أنا الغريبة، ذات المرتبة الأدنى؟ غير أنَّ حاصل السلبيات، برغم كل شيء، يبقى لاغياً إذا ما قورن بعدد الإيجابيات: إجازة، كما يقال اليوم، من الدرجة الأولى؛ عمل ممتع، سخيّ الأجر، يرافق الحياة اليومية الحميمة لربّ العمل. حرّية السخرية، ولو بابتسامةٍ موارِبة، من مناماته الماليزية المزركشة بنقوش التنين الأسود، وقمصانه المستوردة من هاواي وسراويله القصيرة المستوردة من كاليفورنيا، والأمل، العنيد، في أن يجد، ذات يوم، بين يديه مخطوطة عزيزة على قلبي ومن تأليفي (عنوانها المؤقت: ل.ب.س.) وهي قصّة تشوّهات وانمساخات، أبقيتها لنفسي منذ سنوات، ولطالما حفظتها في حقيبتي بمثابة ذخيرة، بانتظار اللحظة المناسبة لإبرازها... ذلك أني أكتب، إنْ أذِنتُم، روايات بوليسية على وجه الدقّة. ما زالت جميعها غير منشورة، وآيلة إلى التلف، باستثناء هذه التي ترونها والتي أمْثُلُ فيها بصيغة المتكلِّم المقرونة بكنيةٍ أطلقها عليَّ الزملاء في قسم التحرير فورَ تعرّفهم بي: ولا أدري من منّا، أجدر بالفخر، هم لأنَّهم وجدوه أم أنا لأني أحمله. أو إذا كان من الافضل أن يحتفظ بتمام ألفاظه المفخّمةِ كما أطلقوه علي في البداية، آ.غ.ا.ت.ا، بَدَلَ أن يُليَّنَ، هنا في الـ «مالكونتونت»، ويصبح أغاتينا الذي نُجِلتُه من قبل الضيوف كلّما أراد أحدُهم أن يسألني عن رقم هاتف أو موعد قطار، أو شريط ڤيديو لفيلم قديم.. الرجال منهم طبعاً (لأن النساء يتصرفن كأنني جِرمٌ هباء)، دون أن يجعلني ذلك أشدّ ميلاً إلى الألفة والألاف، ولو قليلاً، ذلك أني إذ ألفيتني بمحض

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المصادفة في هذا العصر آليتُ على نفسي أن أبقى خلف الكواليس، في المكان الذي هو مكاني...

غير أني، بالمقابل، كنتُ أشعر بألفة أكبر مع المكان والموسم؛ فبعد إنجاز ما يترتّب إنجازه من مهامِ متابعةِ البريد وملحقاته، يبقى مُتّسعٌ من الوقت الذي أكرّسه للصخور والأمواج والطيور والغيوم والنسيم. ومتسع من الوقت لمنظر الڤيلاّت، ذلك المزيج الشاسع من ثلاثة طرز معمارية:

المغربي والإيطالي الكابري وطراز «المنازل على مساقط المياه»(*) بالإضافة إلى لمساتٍ خفيفة من الطراز النيوكلاسيكي الجنوبي... مجمّع سكني جميل ازداد حجماً واتساعاً، في غفلةٍ من الدوائر المختصّة على الجرفِ الصخري الأميري، بحسبِ أموال الناشر وتقلّب أذواقه الفنية.

هكذا أصبح ما كان مجّرد فيلا عبارة عن مجمّع فيلاّت، لا بل قرية، لكثرة الإضافات والملحقات التي نَمَت كالغبار؛ كمثلِ بعض الأحياء التي شيّدت كتوابعٍ عند الأطراف ولكن دون أن تكون لها سمة المدينة ومُميزاتها.

وسواء كانت فيلاّ واحدة أو مجمّع فيلاّت أو حتى قرية سكنية، فإنّ الـ «مالكونتونت» بدت لي من طائرة الهليكوبتر الخاصة التي أقلتني إليها لأوّل مرّة، أشبه برسم تهكمّي وهجين. «إنها تشبهني»، قال أكيلا ملتفتاً من مقعدِ الطّيّار... وأذكر أن

(*) من تصاميم المهندس المعماري الشهير فرانك لويد رايث (1867 ـ 1959)؛ منزل يعتلي من الجانبين مسقط مياه تمّ تشييده عام 1936 في «بيروان» قرب بتسبورغ في بنسلڤانيا.

أقاويل سرت خلال معرض فرانكفورت مفادها أن المجمَّع قد شيِّدَ بناءً على طلب مالكه، شبيهاً بسمات وجهه الرئيسية: حيث باحة هبوط الطائرات تمثل الجبين والصلعة؛ وحوضا السباحة اللوزيّا الشكل يمثلان العينين المغوليتين؛ وفرجات الإضاءة بين الأغصان الكثيفة والأرض المكسوّة بالعشب تمثل بُقع المَرَط في لحيته الصغيرة الكثَّة؛ وصفّ البيوت الريفية الناصعة البياض أشبه بصفٍّ أسنانه البادية في معظم الأحيان.

مما لا شكَّ فيه أن الأمر تطلب مني بعض الجهد، غير أني تمكنتْ، رغم ذلك، من جمعِ هذه الشذرات المبعثرة في رسم «آلي لرأس كبير، لعلّه رأس رجل ميت، مستدير كالقمر ولا شيء فيه يوحي بأنه قناعٌ فَرِح. وماذا لو كانَ الزملاء في فرانكفورت محقّين في نميمتهم؟ وماذا لو كانت الهندسة تلعب هنا دور إطلاقِ المكبوت والمؤشِّر على خبايا النفس الحميمة؟ ولكن سواء كانت تحسيناً أم تقبيحاً، صادقة أم كاذبة، فالتثبت من هذا الكلام دونه مشقات... ليست في طاقة أبصاري واحتمالها، حتى لو استعانت بمنظار بحري، ولذا أجَّلتُ إلى ذاتِ غد كلَّ ما يتطلبه ذلك من تحريات، وفي يقيني الثابت أنّ أحداثاً زاخرة بالدماء والفضائح، وبالشواذات من كلِّ نوع، سوف تتوالى فصولاً بين هذه الجدران، وفي وقتٍ ليس بالبعيد...

فاكتفيتُ موقتاً بمعاينة الأرجاء. رأيتُ صفوفَ الفيلاّت جاثمةً على نتوءات صخرية بارزة تصل فيما بينها ممرات؛ ولكي تجتنب أقدام النزلاء الطرية حُرقة الرَّمل، صبَّت درجات من الاسمنتِ الرمادي فوق المنحدراتِ الهابطة حتى الشاطئ. وعلى خطٍّ منصِّفِ الأضلاع من هذه السلالم، وضمن مُلْحقةٍ مستقلّة،

https://telegram.me/maktabatbaghdad

... ونوافذ حولاء كان يكفي أن يعدّل المهندس فتحاتها ...

كان مسكني: عبارة عن حجرةٍ حُفرَت عند طرفِ الجرفِ بمثابة استراحة وملاذٍ من الشلوق حوِّلت فيما بعد إلى مسكن لشخص واحد وإلى مَرْقَبٍ قلَّ نظيره. وسرعان ما أدركتُ أنها، بالفعل، أشبه بمرقب حارس تقع عند منتصفِ المسافة بين دغلِ صنوبرات حلب، المثالية لقراءات الرئيس الصباحية، وبين مَنْظَرةِ المطلِّ العليا. وتتألَّف هذه المنظرة من دَرْبزين على شكل حدوة حصان يُطل على جنينة مشجَّرة زيّنت أطرافها بسبعة تماثيل نصفية أثرية، بحسب الكتابة بالحرف اليوناني في أسافلها: كليوبولس، بيتاكوس، بياس، إشيل، ميزون، شيلون، صولون...

من هناك، يشمل المنظر المتاحُ فسحةً واسعةً من البحر والسماء وأقسام المجمَّع السكني المختلفة، وعيوب كلٍّ منها: جدران موازية، أبوابٌ مغلوطة أو غير متوازية، ونوافذ حولاء كان يكفي أن يعدِّل المهندسَ فتحاتها لكي تصبح مطلّة على أرقِّ المناظر وأشملها. إنها ستّة مبانٍ، إثنان على كلِّ منحدرٍ، بأحجام متساوية لكنها مختلفة الطرز، تتألف من طبقة أرضية واحدة باستثناء مبنى واحد يتألف من طبقتين مستقلتين بحيث يتاح هامشٌ من حرية الحركة لساكنيه، أي الزوجين آكيلا... أمّا المباني الملحقة والاستراحات فهي اكثر عدداً وتمتدُّ على مساحةٍ واسعة من اليابسة حتى تصل إلى مشارف الطريق السريعة وصخب العالم الذي لا يصدّه عنها سوى صفّ من أشجار النخيل القزمة. وكمثل آخر على القُصور العقلي نرى أنَّ هذه المباني الملحقة جميعها قد حرفت عن أوجه استخدامها الأصلية وشيِّدت في أماكن لا تخطر ببال: مستودع لعتاد الملاحة البحرية حوِّل إلى كابينة استحمام؛ مخزن مبرَّد شيِّد فيما مضى لدعم صناعة السمك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المحلية، تمَّ اصلاحه وتعديل هندسته لكي توضع فيه مؤونة أهل المجمّع؛ مصلًّى خاص حوِّل إلى مغسلٍ للثياب؛ وجناح على طراز معماري حديث شيِّد في الأصل قاعة للمحادثة والتسلية حوِّل إلى صالة طعام؛ وأخيراً ساحة استجمام مشمسة أقيمت خلف المَنْظَرة، ولكنْ على نحو موارب، بحيث حجبت عنها مناظر التماثيل النصفية والأفق الغائم البعيد. أما حوضا السباحة المزينة حوافهما بالفسيفساء على طراز فيلا دوكازال(*)، الروماني الانحطاطي وبتماثيل فتيات يرتدين البيكيني، ومسوخ مكسوة بالأصداف، فقد تواريا في كثافة الدغلِ وسط كمٍّ هائلٍ من العوائق والعقبات التي تجعلهما غير صالحين للاستعمال تقريباً.

فأخلصُ من ذلك إلى أنَّ ما أراه لا يُعدمُ دليلاً على أن ثقتي في محلها في فرضية المنزل ـ الرسم الذاتي(وقد أصبح اليوم الموضوعة المفضّلة لدى المطبوعات المصوّرة: فهي لا تبخل بالأمثلةِ البليغةِ طيَّ صفحاتها). ليس فقط لأنَّه حتماً أراد أن يجعلها على صورته ومثال أفكاره، حتَّى أبسطها، بل لأنه، في آخر الأمر، انصهر فيها حتى أصبح تجسيداً لها، على غرار تلك البقع على الجدران، أو أشكال الغيوم التي نرى فيها بدعة شيطان أو هواية إله...

وما كنتُ لأضيف شيئاً إلى ما سبق، لولا أني، وقد انصرفتُ خالية الرأسِ إلى الكتابة، ما زلتُ، إلى يومي هذا، أشعر باضطراب إذا ما عاودتني ذكرى هذه المساحات الصمّاءِ،

(*) فيلاً رومانية في ساحة آرمرينا (PIAZZA ARMERINA) وشهيرة بفسيفسائها.

والشرفات، والأروقة، والممرّات، وجدران الفُلَيْسِ الخام، وسطوح الآجرّ المشمَّع، والشِّعاب التي تبدو كأنها تفضي إلى مَقْصَدٍ ما لكنها سرعان ما يتوارى أثرها في الرمال... ما زلت أشعر بالحرج حيال غرابة هذا المجمّع السكني الذي فَقَدَ، على غرار المقطوعات الموسيقية المؤلفَّة خصيصاً لعازفٍ أعسر، أكثر من نصفِ احتمالات استخدامه ووظائفه؛ وباتت تشكِّل، على هشاشة بنائها، خلية مزدهرة، أو بالأحرى، مَنْحَلَةً كاملة بملكاتها وملوكها وخشارمها وعاملاتها الماهرات... مرعىً مثالياً، كأنه حلم ألف ليلة وليلة، لباحثٍ في السلوك البشري، مثلي أنا الموقّعة أدناه استير سكامبورينو الملقّبة آغاتا سوثبي والتي يتآكلها الفضولُ العارم لأن تدرس بشغف هذه العينات البشرية بدءاً بالثنائي الذي يحتلّ أعلى اللائحة، ميدار وسيبريين، وصولاً إلى من هم أدنى مرتبة من المدعوين، وهكذا دواليك حتى الخدم وأقلّ المستخدمين شأناً...

أما بشأن الثنائي، صاحِبَيْ الدار، فيكفي أن نثبت مؤقتاً هذه النبذة عنهما: إن زواجهما موصول بشعرة. هي من ناحية، شهوانية مفترسة النظرات، ويقالُ، في ما يُروى في صالونات المدينة وفي محلِّ المزيّن غايتان، إنّها تُعوِلُ أثناء المضاجعة وتَصيحُ كمن يتعرّض للقتل، حتى تعمّ حال التأهب في صفوف دوريات الليل... وهو، مهرِّجٌ فاتن، ذو طَبْع سجالي، زئبقيّ متفاخر، ومستعدٌّ لبيع نفسه مقابل إشارة استحسان. رَجُلٌ يحتاج الجمهور ويُجاهرُ بإيثاره التحديّات، مع أنّه، في مجال الأعمال، عنيدٌ لا يرتدع.(«لا أحظى بخمسِ دقائق من الراحة لكي أموت» هي إحدى عباراته المأثورة). وليس مصادفة أن يستدعيني خلال

https://telegram.me/maktabatbaghdad

شهر آب/ أغسطس كمعاونةٍ له وسط هذا الجمع من السيّدات المتبطّلات والسادة الذين يكنُّ لهم مقداراً، طارفاً أو تليداً، من الحقد.

وبين هؤلاء، متواريةً، بسذاجة، خلف عَدَسَتَيْ اللاصقتين، سرعان ما اعتدتُ أن أميّز منهم من يستحقّ الانتباه، استشعاراً مني، بحسب الجهد والمناسبة، بما يعتمل في أعماقهم من مشاعر مكتومة.

كان المحامي أبولونيوس بلمندو رجلاً خمسينياً ذا وجه بشوش وحديث شيق. ومع ذلك فإنّ سامعيه غالباً ما يشعرون بأنهم مخدوعون، كما هي الحال عندما يطلب المصوِّر من زبون أن «يبتسم» قبل التقاط الصورة، أو عندما يتحدّث الطبيب عن أحوال الطقس فيما يثبت آلة قياس الضغط على ذراع مريضة. فالغاية من ذلك، كما أدركتم، لا تتعدّى الاستراتيجية الخبيثة، عاطفياً، التي تمكنه من تحييد أي تشنّجٍ لدى سامعه.

زوجته ماتيلدا (المولودة غارّو؛ وهو، للمفارقة، يناديها بهذا الاسم) تتمتع بجمال فاتن وقد يبدو خرافياً على أكثر من صعيد. إلهةٌ متلألئة ذات طَبعٍ صموت لا تبالي بسهام الشمسِ الحارقة، لكنَّها في ساعات القيظ الشديد تنزُّه رخامَ بشرتها الابيض بكثيرٍ من اللامبالاة الملكية.

ومثلها، من حيث الجمال، كانت ليبيّا، ابنتها من زواجٍ سابق، والتي، خلافاً لوالدتها، تبدو صاخبة الطباعِ داكنة البشرة. وقد حلَّت بيننا إثر إقامة طويلة في إحدى المصحّات حيث عولجت من الإدمان. وها هي تقضي معظم أوقاتها ممسكة

بسماعة الهاتف، تصرخُ في جهاتِ العالم الأربع، حيثما كان لها أصدقاء من كافة الأعراق والألوان، معلنةً عن أسفها، لا بل ندمها لأنّها شُفيت. ولعلّها لم تحتفظ من عواقب مرضها، بحسب ما يظهر منها، سوى حركتها المستديمة التي لا تخلد للراحة ولو لحظة واحدة، فتتسلق الأشجار أو ترقص كمن أصابه مسٌّ بمفردها أو تركض حافية القدمين على طولِ الشاطىء حتّى تنقطعُ أنفاسها. . .

وتابعها، مثل ظلّها، لأسبابٍ خيرية أو مفرطة في إنسانيتها، جوليان نيستيكو، نصف إشراقيّ ونصف شيخ روحي، نجم أحد التلفزيونات الخاصة، ومؤلف كتابٍ من بين الأكثر مبيعاً حول وسواس المرض، أي النَّهَكُ العصبيّ لدى رهبان المحابس والأديرة في القرون الوسطى. وهو مدعوّ من قبل الناشر، على ما أظنّ، لكي ينتزع منه عقد نشرٍ آخر. غالباً ما يرتدي ثوبَ راهب لكي يحسب من يراه أنّه راهبٌ بالفعل (غير أن أقاويل سائرة تجمع على أنه طرد من سلك الرهبنة). مثقف وألعبان، خجول وذو بأس، وجُلجُلته ـ يُخجلني ما أقول ـ أنه يكون دائماً عرضة للانتصاب الظاهر وغير المبرّر، في العَلَن. وما من مغطس بارد من شأنه أن يخفّف من غلواءِ دمه الغريزي ولا تكفي أوراق تينِ الجرائدِ لمداراةِ سطوعها. بحيث أني كنتُ الوحيدة في مثلِ هذه الحال، وقد اعتاد الآخرون الأمر، التي تجتنبُ النَظَر إليه فيما يَجْهَدُ، بحلّته الرهبانية من الحرير الأسود، يأساً من القدرةِ على إصلاح ما بنفسه، في تسلّق البلاغة للكلامِ على مصير الإنسان بحسب العقيدة المسيحية أو في الاقتباس باسهاب من «علم آباء الكنيسة» للأخ مينيه. . .

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إنّه لثنائي غريب، هو والآنسة لييتّا، مذهلٌ بتنافره، حيث كيد الجسم والنفس يبدو متبادلاً فيكون وقعه مضاعفاً وأشدّ...

ثنائي آخر، لا يربط بين طرفيه رابط الزواج أيضاً، يتألف من النحّات آموس سودو والحفّارة دافنيه دوڤال. كان آموس سارديّاً طويل القامة، ضخم الجثّة، ويبدو كأنّ عظامه قُدَّت من حديد. أما دافنيه، فهي من جنيف، شاحبة البشرة كأنها مصابة باليرقان، نحيلة الجسم، فلا يُعقل، على ما يحسب ناظرها، أن تبقى على قيد الحياة إثر مطارحاتها الغرامية مع عملاقٍ مثله. وهو القادر، من جهةٍ أخرى، أن يلوي بيديه الهائلتين صفائح من معدن صلبٍ فترتَعِدُ كريشةٍ أو تطوَّع كشمع، فيما تعزز رفيقته الأثيرية مِخْفَرَها في الصفيحة ببراعةٍ من اعتاد طعن الخناجر... وكلاهما يميلُ إلى الرسم في أوقاتِ الفراغ، ولأنّ الفيلاّ ليست مجهزة بما يتوفّر عادةً في محترفٍ للرسم، تراهما منهمكين في خط الرسوم المبدئية على ورق أو منشغلين بتنفيذ هذه المخططات بالريشة على شراشف بيضاء مثبتة، بالمسامير، على الحيطان؛ ولا يَغفلانِ في الأثناء دعوة المارَّةِ إلى معرضٍ لهما شتوي تحت عنوان: «الأكفان»...

يلي هؤلاء شريك الرئيس، وصهره غيغو، وهو الناجي الوحيد، إلى جانبِ سيبريين، من أسرةٍ كانت فيما مضى ذائعة الصيت. أما زال أحدكم يذكر بوضوح رسمةَ وجه جون باريمور في «الغران أوتيل»؟ وجهه، للمفارقة، يشبه وجه باريمور وإنْ على نحوٍ معوجّ وكاريكاتوري. والاعوجاج، هو غيغو في نفسه وليس فقط في خلقته؛ ما إنْ يظهر بين الناس حتّى تشيعُ روائح الخبث الوضيع. كل عبارة منه تُصيبُ مقتلاً، كلّ صمتٍ مسموم

(أطلق عليه في المكتب لقب «سمّ الجرذان»). ولم يُفاجأ أحدٌ حين دار همسٌ في أروقةِ دور نشر، بأن مينار عازم على تعويم أسهمه في البورصة، مهما كلّف الأمر، لكي يتخلّص منه. ولذا لم يخفِ أحدٌ دهشته حيال وجوده، مدعواً، في دارته الصيفية.

في ختام العرض تبقى أمٌ شابة(هي أرملة). وهي الوحيدة، إلى جانب غيغو، التي أعرفها من قبل. فقد اضطررت للتعامل معها في إطار قسم التحرير وأوحت إليَّ بأنها مجرّد أفعى متعجرفة. كانت ليديا أوريولي، وهذا اسمها، تعمل لحساب الدار بوصفها مختصّة بالرواية البوليسية لأنها نالت إجازتها الجامعية بناءً على أطروحتها «الزمان والمكان(*) في الأدب الانكليزي في الثلاثينات». وتعمل حالياً مديرة لسلسلة «القط والكناري» ضمن دوام العمل القانوني؛ أمّا في أوقاتها الأخرى فهي أرملة شديدة الوفاء لنائبٍ توفي في السجن. لا أذكر شيئاً عن ابنها الذي يُدعى جاك أو جانو، لا أذكر بالضبط؛ إذ ليس هناك ما يستحق الذكر بشأنه سوى ذقنه الذي اجتمعت فيه، إلى الشعر النابتِ حديثاً، أعدادٌ من البثور تكاد تفوق النمش الذي يغطي جلدي؛ ورائحة عرق السّوس التي تفوح منه...

هذا كلَّ ما ينبغي قوله في ذكرِ اللاعبين؛ وأقول لاعبين لأنّ الأمر يبدو لي أشبه بمنافسة أو مباراة تخضع لقواعد وطقوسٍ واستحقاقات: المسبح أو حمام الشمس أو النزهة في المركب عند آخر النهار، وطعام الغداء، بعد النزهة، الذي يُقدَّم، بالإجمالِ،لكلِّ زوجين في الفيلاّ التي يقيمان فيها: أما العشاء

(*) CHRONOS ET TOPOS

https://telegram.me/maktabatbaghdad

فيقدَّم للنزلاء مجتمعين. إن الخيار في قضاءِ أوقات بعد الظهر يبدو اكثر تنوعاً ورحابة؛ فالبعض يصرفها في قيلولة هانئة، والبعض الآخر في جولات وجولات انتقامية: أدوار لا تنتهي من لعبة الكَنَسته التي تجري إمّا في ظلِّ صمتٍ مطبق وإمّا في هرجٍ ومرج يذكِّر بأجواء الحانات؛ أو دور شطرنج تحت الأشجار، بين أبولونيوس وميدار، علماً بأنَّ هذا الأخير لاعبٌ حاذق ورابحٌ دائم وإن كان أداؤه مشوباً بغطرسة الاستخفاف. («كما هو صنيع الله أو أشبه» يعلِّق أبولونيوس بشيءٍ من الضغينة).

الاستثناء الوحيد هو ليبيتا، التي تقضي هذه الساعات في الدوران حول الجناحِ مثل دابة موثوقةٍ إلى ناعورة: عدوٌّ مُنْفَرِد وشاق قبالة الراهب الذي يراقبها واقفاً، أو لاحقاً بها ليُنشِّف جبينها بمنديل كبير، كما يفعل مدرِّبو أبطال الرياضةِ المحترفين...

ملاحظة: نسيتُ الخدم. وجميعهم من الملوَّنين؛ ثلاثُ نساءٍ ورجُلان اثنان. مجرَّد كومبارس لن نذكر منهم سوى رجُل أفريقي لكلِّ المهام، إسمه الفعلي غير قابل للفظ؛ لذا أسماه الجميع بالنجاشي نيغشتي أو هيلا سيلاسي... كما كدت أنسى مرافق الناشر الغفل، وذلك لسبب وجيه وهو أنه لن يظهر في السياق. فقد عمد ميدار إلى إعادته، على جناح السرعة إلى المدينة، لأن لدى الأخير شكوكاً، محقّة كما تقولُ الشائعات، في أن مرافقه مُعجبٌ بزوجته أو الأحرى، في أن زوجته تحاول إغواء المرافق...

https://telegram.me/maktabatbaghdad

II

رقصة الدبّ

كان ميدار آكيلا متقلِّبَ المظهر كتقلُّبِ الفصول، فإمّا أن يُذكِّر بمحارب تتري وإمّا أن يتشبَّه بدبٍّ لطيفٍ في سيرك. فليسَ مُستهجناً أن تراه، أيام البرد، دالفاً إلى المكتبِ، كلّ صباح، بقبَّعته القطبية الفرو، والوشاح والمعطف المشمَّع ولفافاته؛ يقفُ عند العتبة بجسمه الهائل البربريّ الذي من شأنه أن يزرع الرعب في صفوفِ المنتظرين.

أما خلال الصيف فتجري الأمور على نحوٍ معاكس، فنظراً لميلهِ الفطري إلى التعرِّي من دونِ التعرُّض لأشعة الشمس الملوِّحة، تراه كاشفاً، في ظلِّ خيمة، بدنه الثقيل المتعافي الذي تكسوه غزارة الشعر المبيضِّ قبل الأوان بثنياتٍ مشرقة. ونظراً لكوني من أتباع الظلّ الخلَّص، فإن هذا الميل المشترك كان سبباً كافياً لجمعنا سوياً عند الظهر. غير أنّ دوام عملنا يبدأ قبل ذلك بساعات، أقصد عند السابعة صباحاً بالضبط مهما طالَ سهرنا في الليلة السابقة. حتّى أيام العُطَل ـ وهذه مجرَّد تسمية ـ وبرغم التراجع الواضح في أوضاعه الصحية، خلال الأشهر الأخيرة،

كان مُسْتَخْدِمي يصرّ على الالتزام بالمواقيت المحدّدة. وليكن واضحاً، ما أقوله هنا ليسَ من باب التذمّر. على العكس من ذلك، فأنا أعشق طراوة الصباح المنبلج حين أغادر، والناسُ نيام بَعْدُ، خدري الواقع في البينين لأصل، بعد خطواتٍ قليلة، إلى السلّم الخارجي؛ فيتجاذبني عندها ميلان، فمن جهة أودُّ لو أصعد درجاته نحو شرفة الباحة المستديرة المقبّبة لأتمتّع، بين التماثيل النصفية، بمنظر المدى الخلاّب، ومن جهة أخرى، واجب الاسراع إلى الأيكة حيثُ ينتظرُ الرئيس بفارغ الصبر، جالساً، كسلطان، على كرسيه، ومستعداً لكل أنواع الصياغة والبرمجة والإملاء. وبأية حال، كم تكون لذيذة ملوحة الهواء الحِرّيفة التي تدغدغ منخري، ومنظر ذلك الأفق الجامعِ بين السماء والبحر والذي يمتدُّ أمام ناظري مثل بركان هائل! لم أكن لأعترف لنفسي، حذراً وتطيُّراً، ولكنيَّ قبالة هذه الملونة الموشحة، من الفيروزي إلى الأزرق، والمزركشة قليلاً بلمساتِ بيضٍ، لم أجد ضيراً في أن أحسب نفسي سعيدة، بل وربَّما كنتُ سعيدة فعلاً. وليس من قبيل المصادفة انني، منذ ذلك الحين، حين أسألُ عن لون السعادة، أجيبُ بثقة: إنه لازوردي وأبيض. اللازوردي الذي حدثتكم عنه منذ قليل، ومعه أبيض الـ «مالكونتونث» الذي يماثل اللازوردي في سطوته. الحقيقة أن الفيلاّت جميعها، كانت مجلَّلةً بالبياض، وكذلك السكان وكل التوابع: كل شيء مطلي بالكلس، ولا أقصد الجدران والمرتفعات بل أيضاً جذوع الأشجار حتى منتصفها؛ وعند المساء يصرُّ مضيفنا على أن يلتحفَ ندماؤه بنسيج أبيض من الرأس حتى أخمص القدمين؛ كما أنَّ ملاءات الاستحمام التي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ينبغي أن تلتحف بها السيّدات قبل أن يستلقين على الرمل، ينبغي أن تكون ناصعة البياض فتبدو خيالاتهنَّ كأنها أشباحٌ تتريّض، ريثما تجفّ شعورهنَّ. . .

وبالطبع كلَّ هذا كان يحدث عندما تكون الشمس قد اعتدلت في صدر السماء، بعد ساعات من انصرافي، وقوفاً، إلى أداء وظيفتي. فبالنسبة لي، يبدأ العالمُ، يومياً، عند بزوغ الفجر، وتلك كانت حالي ذلك اليوم، يوم 14 آب/أغسطس الذي تبدأ فيه قصّتي.

اليوم السابق، أي عشية اليوم الذي يسبق 15 آب/أغسطس، كنا قضيناه مزاولين هواياتٍ متعبة على نحوٍ خاص. فلقد أمضيتُ نهاري فوق طوف وسط المياه، بصحبة الآخرين الذين راحوا يسبحون أو يصطادون السمك.

باستثناء الرئيس الذي فضّل أن يلزم اليابسة مطمئناً وأجاز لي، للمرّة الأولى، أن ألتحق بالمجموعة. إنصعتُ لطلبه الحازم بعد تردُّد، نظراً لإحساسي بالدونية، وتحسُّباً لما سأعانيه من ادّعاءات ماكرة من قبل الفرسان من جهة، وتظارف السيِّداتِ من جهة أخرى. وحصل ما توقعته بالفعل، غير أني انتهزتُ الفرصة أيضاً للتمتع بمنظر الطبيعة المزدوج، والتأمّل في تلك العينة البشرية المحاصرة في ضيقِ حلبة حيث يُعبِّرُ عن الأمزجة الخاصة والطباع الطيبة أو الخبيثة، بحرية تامّة وبمعزل عن أي رقابة. أمضيتُ وقتاً ممتعاً، ولكني عدتُ منهوكة عند المساء لأغرق في سبات عميقٍ، نهضتُ منه، صبيحة اليوم التالي رائقة المزاج توّاقةً لارتداءِ أزهى ثيابي. وهل أسرّ إليكم بأني، حين نظرتُ إلى

وهل أسرّ إليكم بأني، حين نظرتُ إلى نفسي في المرآة قبل أن أغادر،
راقت لي، للمرة الأولى، نفسي؟

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نفسي في المرآة قبل أن أغادر، راقت لي، للمرة الأولى نفسي؟ كنتُ أرتدي فستاناً هندياً شفّاف القماش مزركشاً بالورود؛ وأنتعلُ بابوجاً مذهباً، كنتُ ابتعته خلال تنزيلات الربيع لأنه ليس على الموضة؛ وألحقت الكلَّ بصديري من القماش الذي يوهم الناظر إلى صدري باستدارتين كاذبتين؛ وختاماً رسمتُ خطّين خفيفين من أحمر الشفاه على شفتيَّ ما يكفي لإخفاءِ رقتهما الغثة. . .

في تلك اللحظة بالذات رنَّ جرس الهاتف (وهو جهاز نقّال صغير أهداني إياه مينار لكي يتمكن من الاتصال بي بسهولة): «آلو»، قُلتُ، كما في أفلام السينما.

«لا أسمعك جيداً» قال صوت رئيسي. «تكلّمي في السمّاعة»

انصعتُ لتوجيهاته متراجعة بضع خطوات نحو زاوية الغرفة.

«واحد، اثنان، ثلاثة، أتسمعني؟» قلتُ.

كان مسلياً أن ألعب دور المذيعة، لكنّه قاطعني قائلاً: «هكذا أفضل. إحضري حالاً إلى الغيضة، أريد أن أراك».

بعد أن تفحّصتُ هندامي بنظرةٍ أخيرة تحدوني ثقة عارمة بالنفس، هَرَعْتُ إلى الغيضة المقصودة: فهناك، في تلك الغيضة المعزولة، يختار الرئيسُ أن يصرّف أعماله؛ وكان يحلو له أن يسمّي ذلك المكان، بتواضع: «المكتب»؛ في حين أطلقنا عليه اسم «صالة العرش» بسبب الكرسي الضخم الذي يستندُ إلى جدار الباحة المقببّة حيث يجلسُ بجلالِ أصحاب السلطان.

في طريقي إليه (ما الذي أيقظه في هذه الساعة المبكرة؟) لمحت غيغو ميمونه من الخلفِ. آخ، قلتُ في سرّي، لأستعدّ إذاً لواحدةٍ من عباراته اللئيمة. وبالفعل (وأكرّر هنا ما أتيتُ على ذكره في السابق) كان غيغو لئيماً بطبعه ويعشق اضطهاد أكثر الناس خجلاً. آموس، مثلاً، الذي يتهم أعماله، السيَّالة في الفضاء، بأنها أشبه بالتجديفِ وتكذيب ثبات الخليقة. ومثل هذا الهراء يملأ رأسه دون أن تكون لديه أدنى معرفة بأصول النحت. أما جوليان فهو ضحيته المثالية، إذ غالباً ما كان يشبِّهه بحرّاس «الضريح» الذين يغالبون النعاس أمام حرزٍ خالٍ...

في موقف مثل هذا غالباً ما تحمرّ وجنتا الأسقف المزعوم فيما تغلي الدماء حنقاً في عروق ليبتا الواقفة بجانبه. الأمر الذي يُثلج قلب السيّد غيغو الذي يَعْشَقُ مثل هذه الترّهات... أمّا صلاته بصهره، شريكه ومالك الدار، فكانت تتسم بشيء من الغموض. إنها «صفقةٌ بين أشقياء» بحسب عبارته، أي أنه اتفاق بين نذلين حيث الغالب، في تعاملهما، الابتزاز المتبادل على طريقة العين بالعين، والإفلاسات المصرفية، والقيود المزدوجة والرهنيات الضاغطة القابلة للإنزلاق كالأشباح عبر أي ثغرة... وقد توصَّلتُ إلى مثل هذا الاستنتاج انطلاقاً من عددٍ من الإشارات المغفلة، أقصد أطراف الأحاديث، والتوريات المرمّزة، والتلميحات المواربة والفصيحة التي وجدتني أتابعها أحياناً مذهولةً لتشعُّب هذه العَرْبسة الفظيعة...

لذا عقدتُ العزم، في قرارة نفسي، على اللحاقِ به وتجاوزه، برغمِ يقيني بأنّ «صباح الخير» التي سأبادره بها مُتَلَعْثمة لن يكون جوابها «... الخير يا استير» (استير، لاحظوا جيّداً

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وليس آغاتينا)؛ ولكن أخطأ حسباني وهذا ما حصل بالفعل، ما جعلني مطمئنةً ومحبطة في آنٍ معاً.

حثثتُ السَّير قليلاً للقاءِ ساحري الملكي فيما تراودني الأفكار ـ فكرة تجرُّ أخرى ـ متسائلةً، في سري، عن السبب الذي يحولُ دون وقوعي في غرامه إلى الآن. خصوصاً أنّه يتمتع بكلِّ المزايا التي أقدِّرها لدى الرجل: الأريحيّة، حبّ المسرح، السخرية... وهذه كلّها مشفوعة بمقدار من الإدِّعاءِ المزّ...

«ضعي جانباً دفتر الملاحظات، قالَ لي حالما رآني. ليس لديّ ما أمليه عليك، لن نعمل اليوم. سنذهب جميعاً في نزهةٍ بالزورق، وهذه المرّة سأكون أنا أيضاً معكم...»

يا لجرأته، يستدعيني على عَجَلٍ ليقول ما قاله.. وشخصياً.. ألا يصلح الهاتف لمثل هذه الامور؟

رحتُ أراقبه خلسةً، فبدا لي، تحت أشعة الشمس الوافدةِ الشاحبة، أكثر هزالاً ووهناً. حتّى صوته جاء مشوباً بنبراتٍ حزينة أشبه بالنبوءات.

«كما أردتُ أن أحذرك، قال بعد صمْت. ثمة أمور بالغة الخطورة سوف تحصل هنا. وأريدك أن تبقي خارجها فلا تؤذيك... وبأية حال، خذي هذا الشيك. إنه راتبك لإثني عشر شهراً، بلا مقابل. بمثابة تعويض...

ـ عمَّ تعوِّضني؟ غمغمت قائلة، بكثير من الارتباك، عمَّ؟

ـ لنقل إنه تعويض عن إخلاصك الحالي والمستقبلي، أجاب مراوغاً وابتسم. ثمّ نهض عن عرشه ودنا مني، وبرغم

خلوّ المكان من أي شخص آخر، مالَ على أذني، قبل أن يغادر، وهمسَ قائلاً: تدبَّري لنفسِك رجلاً. مؤسف جداً أن يبقى المرءُ وحيداً. فأنا مثلاً، ولكي لا أبقى وحدي، أجدني مضطراً للإنفصام شخصين ولتحمّل تلك الحرب الأهلية المتمادية بين شطريَّ...»

يا لهذه العبارة، وربّي! واحدة من تلك العبارات ذات الوقع التي اعتاد أن يدوّنها، إذا خطرت بباله، على طرفِ كمّه قَبْلَ عشاءِ عَمَل... وغريب جدّاً أن يُطلقها على مَسْمَعِ سكرتيرة، مجرّد سكرتيرة، وفي سياقِ أحاديث غامضة وملتبسة.

كان الأمر يدعو إلى الدهشة فدُهشتُ؛ ومكثتُ ساهيةً لبعض الوقتِ على جذعٍ صخري انتخبته مقعداً للمناسبة، ثمَّ اتّضح لي أنه مقعد مزعج على اكثر من صعيد. لِمَ لم انتبه من قبل؟ ما زال يحتفظ بأثرٍ من رطوبة الليل وقد التصقت به بعضُ عيدان القش لأكتشف، فيما بعد، حين ذهبتُ لأبدّل ثيابي استعداداً للنزهة العتيدة، أنّ مؤخرتي، ولا أدّعي هنا أني من ذوات المؤخرات اللافتات، قد غطّاها نثار القش مثل جفنة من القصاصات الكرنفالية. باختصار، كنتُ آخر الواصلين إلى الزورق حيث يستعدُّ الجمعُ للإبحار وقد ضاقوا بتأخري عنهم...

غير أن البحر والشمس كانا واسطة خيرٍ بيننا. وأبحر الزورقُ متمايلاً مثل مَهْدٍ على بساط من الامواج الجميلة، تحت أشعة الشمس الرحبة التي استقبلها كلٌّ منهم بأجفانه نصف المطبقة وذراعه المرخية عبر الحافة تلامسُ سيل المياه المتماوجة. وكنّا استغرقنا في حالِ الاسترخاءِ تلك لولا أنَّ ليديا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أوريولي، بنباهتها المعهودة، وجدتها سانحةً لخرق الصمت بمحاضرة مُسهبة حول مهرجان الأفلام البوليسية الذي أقيم مؤخراً في بزارو وحول طبيعة اللغز الجنائي. ما حمل آكيلا على تعليق فترة القيلولة التي كان ينعم بها تحت قبّعته المكسيكية، مقاطعاً سردها، ومنطلقاً، على جاري عادته، في مونولوغ مسرحي محكم الفصاحة. كنتُ قد أحنيتُ جذعي إلى الأمام حتى ركبتيّ ومكثتُ ساكنةً بلا حراك ولائذة بركني عساني أقلّصُ حضوري بينهم. ذلك أني مولعة بالخطب المباشرة كَسَهم لا يطيش في المواربات: كمثل أسفار لا تفضي وإن أفضت فإلى لبٍّ متاهةٍ لا طائل منها.

وهذه المَّرة أيضاً لم يخطئ حسباني وإنْ تكلّلت الخاتمة بمفاجأة قلبت الأمور، كما سنرى لاحقاً، رأساً على عقب.

«إني أزاول مهنة النشر، قال، ولا أدّعي أني مختص في مجال النقد، غير أني أؤمن بخلود الأنواع الأدبية. ولطالما رأيتها، بأمّ العين، تعودُ من النافذة إذا طُردت عنوةً من الباب... وأؤمن أيضاً بأنها جميعاً تنتمي في الأصل إلى ترسيمة وحيدة وأصل وحيد وهو النوع الغامض.

ـ جميعها؟ قالت دافنيه دوڤال معبِّرة، بلباقةٍ، عن بعض الشكوك لديها.

ـ أجل جميعها، أجاب ميدار. فأنا أرى أنَّ أيَّ سياق، سواء كان متخيَّلاً أم واقعياً، يمكن أن يُردّ إلى ذلك النموذج الوحيد.

ـ حتَّى حكاية سندريلا؟ ألحت دافنيه بالسؤال وهي تسوي

أطراف البيكيني على مفاتنها الهزيلة. حتى حرب «الوردتين»؟

ـ وحتّى حياتي؟ قالت ليبتا بصوت خفيض.

ـ أجل، قال الناشر مؤكداً. شريطة أن نكتشف طرف الخيط الفعلي في الحبكة. فالحقيقة أن الانسان، منذ عصر الكهوف إلى اليوم، لطالما أدرك أنّه في مكابدته حرب البقاء يومياً، من المضاجعة إلى الصيد، ليس سوى ممثل في مسرحية مثلّثة الأزمنة، حيث الزمن الأول يفترض حاجة ما، والثاني مجابهةً، والثالث إشباعاً. وهذا هو نفسه جدل الغموض والتوتر والوضوح الذي يبدو لي جوهرياً في الرواية البوليسية...».

في تلك اللحظة لفَتَنا تحليقُ نورس لم يلبث أن حطَّ على المُربَّعِ ونقَّ داعياً إلى أمرٍ ما. لكنّه لم يحظ بانتباهنا فعاود تحليقه.

«إذا كان الأمر كذلك»، قالت ليديا أوريولي، فإن التراجيديا الإغريقية هي أيضاً تبدأ بأزمةٍ وتنتهي بانفراج.

ـ حتى امبذقليس في عالمه... «حاولت أن أقول بخجلٍ»، لكنّ غيغو قاطعني ليُعلن بابتسامةٍ هي أشبه بـ «نيوب الليثِ بارزةً»:

«وأنا أقول، مع الفارقِ طبعاً، أنني حين أُكابد لربط سيور حذائي وعقد ربطة عنقي، يحدوني الأمل، أنا أيضاً، بأن تصل هذه الأزمات إلى نهاياتها السعيدة...

ـ سيور الحذاء، ربطة العنق... قال بلمندو هازئاً. لِمَ لا تذكر أيضاً المجابهات مع مباشري المحاكم...»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

غير أن الناشر يتدخل مقاطعاً: «كلامك يصبُّ الماء في طاحونتي. وأنا مسرورة جدّاً لأنّك أنت أيضاً تسوّي حساباتك بألف قصورٍ يصبو إلى الرضا. تماماً كالجوع الذي يتولد من شدّة الخواء: كالحرارة الغرامية التي تتولّد من الامتلاء المفرط...»

وجاء دور آموس ليدلي بدلوه وقال بنبرةِ ارتياب: «ولكن هل هذا صحيح حقاً؟ أصحيح أنَّ كل ما في الطبيعة يصبو إلى الانتقال من حال الحرب إلى حال السكينة، من المفرد إلى المثنّى؟ أم أن العكس هو الصحيح؟ أن مبدأ القصور الحراري...»

قاطعته دافنيه بقولها: «أرجوك، دعنا لا نعقد الأمور، فما صلة ذلك بالرواية البوليسية؟»

وميدار، كعادته، لا يلتفتَ إلى ما قد يحرف خطابه عن خطّته، فيردف قائلاً: «إني لا أثق إلاّ بما أرى وأدرك. فالخلق معادلة بمليار مجهول نتشاغل، طلباً للتسلية، في حلّها قبل أن تمحوها ممحاةٌ تكون، في الأثناء، قد محتنا. ومن بين أشكال المجهول التي نصادفها، هناك الموت، ذلك المجهول الأمّ، الذي يُحبط الجميع. خصوصاً الموت بفعلِ فاعل والذي نجهل فاعله... وبناءً عليه، أليست أولى غرائزنا هي تلك التي تجعلنا نرغب في انتزاعه من مجّانية الغموض وإعادته إلى صلبِ المنطق المألوف وإدراجه بالتالي، في عالمنا؟»

يصمتُ هنيهةً كأنه يفكر ويقول: «هذا استنتاجي المؤقت: العقل قد ينتصر في المناوشات الجانبية، لكنّه لا ينتصر مُطلقاً في معركة مهمّة».

صفّقتُ بحماسة؛ لكنّ ليديا أوريولي قالت: «إمّا أن أكون مخطئة وإمّا أن تكون هذه اللحظة الجدلية، إذا قصرنا القول على السياسة، هي ما يُسمّى بـ «الإصلاح»؟ أيكون الأدب البوليسي إذاً يمينياً؟

يهزّ ميدار كتفيه: «إنّ الثورة هي المبادرة إلى الحلم باستبدال انعدام التوازن بالنظام، وتحويل الافتئاتِ إلى عدالة. أمّا التحقيق البوليسي، فهو أشدّ تواضعاً، ولا يزعم اكثر مما قد تزعم الممارسات الطبية أو الدينية، ويقتصر على تعزيم قلقٍ عبر التثبّتِ منه، أو إذا كان ذلك متسحيلاً، فعبر تزويره...

كان كمن يتحدَّث إلى نفسه فما عاد أحد يصغي إليه. رحنا نراقب ليبتا التي قفزت منذ بعض الوقت إلى الماء هرباً من السجال المملّ، ثمّ راحت تصرخ طلباً للنجدة لأنها عجزت عن اللحاق بالزورق. وما أن انتشلت من المياه، استلقت راشِحةً عارية بجانب نيستيكو الذي، لتحرُّجه، ستر عريها بصفحتين من صحيفة «كوريييري»؛ ثمّ لكي يصرف انتباهنا عنها، قال كأنّه يخاطب نفسه: «إن ميدار يُلقي مُرافعةً في مديحِ ما عنده؛ وما عنده، في هذه الحال، هي دار النشر التي يديرها والمختصَّة بالروايات البوليسية ولها كل المصلحة في ترويج ما تنتجه».

وبمثابة إجابة استغرق الناشر في قهقة متّصلة، دون أن نفهم لماذا، ثمّ توقف عن الضحك فجأة ليمسح شفتيه وأنفه بمنديله وكأنَّ ما سمعناه ليس ضحكاً بل عَطْساً.

«لا، ليسَ في مديحِ دار النشر التي أملكها بل في تقبيحها» صاح قائلاً موزِّعاً نظراته كأنّه ممسوسٌ مهتاج. «أفسِّر ما أقول:

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ما عادت الرواية البوليسية تؤدي ما كان قوام رسالتها المدنية والعلاجية في آن. فالتحرّي لم يعد، اليوم، ذراع الله الطولى، ولا البؤبؤ الفريد على جبينه..، وأفكاره أصبحت هوائية متلاشية على غرار منحوتاتك يا عزيزي آموس، وعُصابيّة كرهبانك يا عزيزي جوليان. والأدهى من ذلك، أنّه أصبح لا يتوانى عند الحاجة، عن استخدام قبضتيه. ثمّ إنّه يمشي كثيراً، وقدماه تتعرّقان...»

«هنا بيت القصيد. إنه يكنّ الضغينة لمارلو». أسرّت إليّ ليديا أوريولي ولكزتني بمرفقها علناً لكي يسمعها الجميع.

وإذ رأت أننا نوافقها الرأي، استجمعت كلّ جرأتها وقالت: «إني اعترض، إني اعترض. ربّما وددتُ...»

قاطعها آكيلا قائلاً: «ببالي مارلو، هذا صحيح، ولكنّ هذا لا يعني أن اسلّم جدلاً بمنطقِ أشرّ الآغاتَيْن...»

ورمقني بنظرةٍ مُرتَجِلاً إحدى ابتساماته قبل أن يردف قائلاً: «مارلو ليسَ سوى مماحك تاعسِ الحظ؛ وبوارو وشرلوك مجرّد مِلحَاحَيْن. وما كنتُ لأودّ أن ألتقي في ليلة معتمة هؤلاء الثلاثة في كابينةِ مَصْعد. أبطالي المفضّلون هم زاديغ، دوبان، ورولتابي... وصحيحٌ أيضاً أنّ لي مأخذاً على كريستي منذ أن حاولت في صالة عرض تحمل اسمها أن تبيعني صواناً طراز «سوغون أمبير» على أنه صوان من طراز «ريجانس»...»

«أترينه على حقيقته، همست ليديا في أذني، فيما كنتُ أدرك أخيراً لما يسّمونني، في قسم التحرير، «سوثبي». إنه قد

يبيع نفسه للشيطان مقابل تلاعبٍ بسيط بالكلمات. ثمّ إنّه لم يعرف في حياته تجّار التحف؛ ويكتفي بجمع مائيات ڤللّي وغواشيات غوتشونه.»

وها ميدار قد طاب له الاسترسال: «وأتغافل هنا عن حرص هذه العجوز الخَرِفة على تضمين رواياتها تلك الحيلة التي تفترض وجود عددٍ كبير من الذين يريدون موتَ شخصٍ ما، وهذا تركيب قلَّ نظيره في الواقع؛ كما أنه من النادر جداً، لكي لا نقول من المستحيل، أن يستذكر المتَّهم بدقة متناهية ما الذي فعله أثناء وقوع الجريمة، في حين أن أحدنا، أنا أو أنتم، لن يسعه أن يستذكر بدقة كم استغرق عشاء أمس ولا الأصناف التي احتوتها لائحة الطعام... هذا إذا أغفلنا ما تبتكره من ذرائع، هي الاشدّ سخفاً، لتبرير مثل هذه الذاكرة البالغة الدقّة: لقد سمعت صفارة قطار برايتون المسائي... أو كان التلفزيون يبث المسلسل الشهير عند التاسعة والدقيقة الثانية والعشرين مساءً... أو كان بائع الحليب يطرقُ، في الأثناء، الباب وكلنا يعرف دقّة الرجل في مواعيده... أفّ!»

للمناسبة لقد حلّ الظهر منذ بعض الوقت، وإلى الآن لم نأكل سوى الكلمات. فسيبريين لا تغفل أبداً، ولو في عرضِ البحر، عن واجباتها كربّة بيت. أشارت على هايله أن يقدِّم الطعام، ففتح النجاشي كيس المؤن، وراح يوزِّع، مُتعثِّراً، الطعام والشراب فيما سُجِّلَ هدوء على جبهة السجال. بيد أن بلمندو انتهزها سانحةً للإدلاءِ بدلوه، فقال: «ومع ذلك فإني أراهنك على أنَّ أيَّ واحد منا يستطيع، إذا كانت مسألة حياة أو موت، أن يسترجع في ذاكرته أدقّ التفاصيل وأكثرها تفاهة...»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وكان الإيجابُ جواباً بالإجماع عبّرت عنه غمغمات الأفواه الغاصّة بالطعام.

«أراهنك أن لا! أجاب الناشر. فإذا كان علينا أن نسرد غداً كلَّ ما فعلناه اليوم، لجاء سردنا مضحكاً.»

وبدا معتزّاً بما يقول: «إليكم هذه اللعبة التي قد نحتفظ ببراءة اختراعها، وقد تسمّى: أين كنتَ أمس بين الرابعة والخامسة مساءً؟ أو حجّة الغياب...»

وطلب من هيلاسيه أن يحضر له منديلاً ورقياً وقلماً، ليدوّن، بمقدار ما يتيح له تماوج القارب، شروط الالتزام وعيّنني سكرتيرة وأمينة صندوق وحكماً. «من اليوم فصاعداً، يُحتسب كلُّ يوم يمرّ. وأتحداكم إن فوجئتم بالسؤال أن تستذكروا بدقة كلّ حركاتكم وسكناتكم في كل ساعة وفي كل دقيقة من ساعات اليوم ودقائقه...»

كنّا في طريق عودتنا، وكان وهجُ الشمسِ يجعل الوجوه والأجساد أشبه بأنصابٍ مذهبة. واستلقينا جميعاً ومكثنا صامتين. غير أنّ الناشر الذي تمدّد بقربي، أصرَّ بعنادٍ غير مبرّر على استئنافِ حديثه:

«بدءاً بصباح الغد، همسَ في أذني قائلاً، دوّني على ورقة كلّ ما تلاحظينه من سلوكِ كلِّ واحد منا، ملابسه، روحاته وغدواته، لحظات ظهوره واختفائه بالساعة والدقيقة؛ لكي يُسأل عن ذلك عندما يقتضي الأمر. وسوف ترين كم يكون الأمر مسلياً!» ردَّد قائلاً، غير أن كلامه بدا زائفاً.

نهضت ليديا أوريولي من مكانها ودنت منّا منحنية وقالت:

«لنفترض أن هذا صحيح، وأنْ بلى، كما تقول، الحياة كلّها لغزٌ في غرفة مظلمة وليس الأدبُ سوى تعبير عنها: فإذا استعرنا، بشيء من التصرُّف، عبارة ستيفان الرائع ومفادها أن «كلَّ ما في العالم موجودٌ» لكي يفضي بنا إلى حبكةٍ ملغَّزة، أليس حريّاً بنا أن نحوِّل سلسلة كتبنا الشعبية إلى مكتبة لكلاسيكيات الأدب، ونجعل منها نوعاً من «بلياد»(*) بوليسية؟»

ـ «لا!» قال ميدار في شبه صراخ، فأدركنا أنّه انتظر هذه اللحظة لافتعالِ انقلابٍ مسرحي، لشدَّة ما بان الظَّفرُ في عينيه. حتّى النجاشي الذي كان باشر تقديم المرطبات على الحاضرين، جمد في مكانه مثل خادم أسود في باليه «الجميلة النائمة».

«لا! صرخ آكيلا مُردِّداً. إذا كان الأمر كذلك، وإذا كانت كلّ حركة من حركاتنا تحاكي حيثيات تحقيق ما، فما الداعي لاختراع حبكات متخيلة؟ الحياة هي الكفاية، والفنّ نافل، والأرجح أنّه مؤذ. وباختصار، أعلنُ أني منذ اليوم ما عدتُ مؤمناً به وأسدل الستار. والكتاب التالي، وهو قيد الطباعة، هو الفصول الثلاثة التي عثر عليها بمشقة من المسرحية الملغّزة، وسيكون الأخير، وحسن الختام...»

ولكي يكسب كلامَه صدقية ما، أردفَ بكلام مهم: «سيكون هذا الإصدار الأخير بمثابة قدّاس يقيمه حبرٌ دجّال، قبل أن يرمي بنفسه من نافذة الفاتيكان...»

خسارة ـ هذا ما تبادر إلى ذهني للوهلة الأولى ـ إنها ضربة

(*) pléiade: حلقة الخالدين.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قاضية توجه لـ«ل.ب.س» ي العاثر الحظ. جاءت في الوقت الذي صمَّمتُ فيه على دسّه بين أوراق بريده الصباحي، كما تترك الأمّ العازبة ثمرة خطيئتها أمام دير... غير أنّ ما استأثر باهتمامي، وسط كلّ هذا، ثرثرة ليديا أوريولي المتواصلة في أذني بين غمغمةٍ وصراخ.

«كيف! صاحت أخيراً وهي تفتُّ بين أصابعها قطعة خبزٍ أسمر وناشف. إني أعمل بموجب عقد عمل! وَلوَلَت قائلةً فاندلقت على فخذها كأسٌ نصف ملآنة. أتظُن أن الأمر بمثل هذه السهولة؟»

أما غيغو الذي نهض بدوره، فقد غمغم قائلاً: «ألا ترون أنّه يخدعكم؟ لا علم لي، وأنا شريكه بالحصّةِ الأدنى، بكل ما يقول...»

كان الزورق يقتربُ من المرسى والناشرُ يلزم صمته حيال هذا الإجماع على تأنيبه. سوى أنّه كان أوّل المترجلين من الزورق وبدا بتعثّره مُتعباً وشبيهاً، مرة أخرى، بدبٍّ عجوز يرقص بقفزات قصيرة؛ وقال للبقية: «الرهان ما زالَ ساري المفعول. وبالطبع، الضيافة أيضاً».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

III

إشعار بزلزالٍ وشيك

وأزعم أنَّ ساعة القيلولة، بعد الظهر، مقدَّسة عندي. كيف ذلك وقد صارت غرفتي كرصيفِ ميناء، يقصدها الجميع للاستفسار نظراً لكوني يُمنى الرئيس ويُسراه؛ وطلباً لتأكيدِ ظنونهم والأغلب لتكذيبها. وكنتُ أصرف ما يُتاح من وقتي لجبهِ السائلين، عبثاً، بالحقيقة المُرَّة: إني لا أعلمُ شيئاً، وأخشى، كما يخشون، أن أفقد وظيفتي. فيتظاهرون بأنهم صدّقوا كلامي غير أني لا أنجو، قبل مغادرتهم من إزورار نظراتهم إليّ.

البلمنْديّتان، وهما الأكثر عجرفةً حيالي، كانتا أوّل من يلوِّح لي بيديه من خلفِ زجاج النافذة، مُتَلَصِّصتين إلى الداخل، ما استطاعتا التلصص. فأنهض لأفتح لهما الباب، فأجدهما قلقتين، لاهثتين، لكنني، على الأخص، أجدهما معطّرتين، إحداهما مثل الأخرى، بعطر جديد، نفَّاذ، يذكّرني، أوّل ما يذكّرني، برائحةِ بقّة مسحوقة أو بنينوفر عَفِنة.

كانتا فاتنتين، لا أُنكر ذلك: الإبنة بغمّازة ذقنها، وغمامة الشعر المتهدِّل فوق قذالها مثل نُصُبٍ مُترجِّح؛ والأمّ كأنَّها تحفة

هبطت لتوّها من إحدى واجهات سيلينونت، حاملةً مروحتها الحرير مثل صولجان. أنا شخصّياً، وإن كنتُ قليلاً ما أميلُ إلى الملذّات (كما برهنت لي مراراً محاولاتي القليلة لمداعبةِ نفسي بنفسي)، فإني مولعة، دونما تحفّظ، بالجمال، أنثوياً كان أم ذكورياً لا فرق. كنتُ أرمقُ هاتين الإمرأتين إذاً، اللتين تعطّفتا، للمَّرةِ الأولى، بمخاطبتي عن قرب، بنهم فلاَّحة تكتشف واجهات المحالّ في المدينة... غير أني ذُهِلْتُ، في زيارة التقصّي هذه، لوجود الإبنة التي طالما بدت لي منزَّهة عن مثلِ هذا الفضول.

مكثتا بعض الوقت. «أصحيح. سألت الأم، أنّ الأمر لا يقتصر على إغلاق سلسلة الهرّ والكناري» وأن ميدار في معرض تصفية كل شيء؟ أصحيح أنّه على حافة الافلاس؟ أتصدّقين ذلك الهراء الذي سرده على مسامعنا هذا الصباح؟

ـ أقبح من أن تُصدَّق!» قالت ليبتا وللمرَّةِ الأولى بشيء من سرعة البديهة، هي التي من عادتها أن تشوّه المقارنات وتحوّلها إلى بداهات شيطانية، على نحوِ ما يعشق التلاميذ على نحو: «أصلع من أن تكون شقراء» و «أذأب من أن يكون حملاً».. وهكذا دواليك.

بمَ أجيب؟ لَزِمْتُ صمتاً عنيداً حتّى ضاقت الأمّ بي وغادرتني. تبعتها ليبتا وما أن ابتعدت قليلاً حتّى هرعت إليَّ مجدّداً: «ألديك بعض الكوكايين؟» سألتني بصوت خفيض، الأمر الذي أبكمني ذهولا، وعندما تعبت من انتظار الجواب ابتعدت مثل مُسَرنمة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ولم تكد الصعداء تصعد من رئتيَّ حتى شرَّفني زائرٌ آخر، هو آخر من كنت أتوقع زيارته، لكني فوجئتُ به أمامي. وأتضح لي بدليلٍ قاطع أنّه إنما جاء ليسرّي عن كربه لا ليسأل، لأن غيغو ميمونه، والزائرُ هو هو، بدا وكأنَّ القَلقَ قد لطَّفَ من خصاله. وجاء كلامه مونولوغاً منفرداً من حسناته أنّه طمأنني، في الاقل، على مستقبلي: «أوّلاً: لن يتمكن من بيع الدار إلاّ بموافقتي. ثانياً: حتّى لو باع أسهمه، وهي الأغلب، سيبقى لي في الشركة ما يكفي من النفوذ لأضمن لك...»

للمرّة الأولى، أشعر بأنه إنسان، غير أن كلامه لم يكن مقنعاً! وزاد من إحساسي هذا ما سمعته حين قال: «الكوارث، بالنسبة لي، ليست أموراً طارئة». ولم يكن كاذباً في ما يقول؛ وبرهاني على ذلك نبرة الأسى في صوته، وجيوب الانتفاخ تحت عينيه ولحيته التي لم تحلق، أو لم تحلق جيّداً، هذا الصباح والتي أصبحت نابتة تكسو وجناته بظلالٍ من الزرقة الداكنة.

أما خطاب الراهب فكان صريحاً غاضباً: «وماذا عن حقوقي كمؤلِّف؟ إنْ جمَّدها أرديته قتيلاً. كنتُ قد عَزمتُ على الزواج... ولكن إذا ضاع كلُّ شيء هنا...»

أن يتزوج؟... هذا أفضل ما سمعت إلى الآن... أحاديث المساء، هناك على الشرفة المقبّبة، أو عند طرف النتوء البحري، بصحبة ليتا البائسة... التي ضلَّت ثمَّ اهتدت؛ غير أنَّ ما اتضح أمام عيني لم يكن مجرَّد هداية بحسنةِ السامري التربوي الفاضل... وإذا كان قد هجر الرهبنة حقاً، فلمَ يُصرّ جوليان المارق هذا على إرتداءِ الثوب؟ إلاّ إذا كان ثوب الرهبنة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفضفاض يُستخدم كمطيّة، كحجاب... كمثل الحاجب الاسطواني للضوء...

هذه الشكوك التي راودتني بدت لي شائنة. «الأحرى أن تخجلي من نفسك يا أستير» قلتُ في سرّي وأفلحتُ في تبديد هذه الخواطر إذ سلكتُ نهجَ الهروب.

وفيما كنتُ أصعدُ السلّم صادفت الفنانين الصديقين الهائمين، كما قالا لي، بحثاً عن مناظر يرسمانها.

لطالما سُعِدتَ بلقائهما لفرط ما يبدوان مختلفين. ولطالما تخّيلتهما بطلين لرواياتي المتسلسلة التي لم أكتبها بعد: مطاردا فراشات نادرة أيّام الآحاد، وقد ضلاّ طريقهما وسط السهوب؛ وشمُ فتاة على ساعِدِ ضابط صفّ في الفرقة الأجنبية؛ بوباي(*) بصحبة نصفه الثاني، ما اسمها يا ربّي؟ آه، بلى، أوليڤيا...

أحمد الله أني تمكنتُ أخيراً من الانفرادِ في نزهةٍ مرتجلة. ليس هرباً من الحصار فقط بل، الأحرى، لكي استجمع في ذهني حصيلة ذلك الهرج الذي شهدته كمراقبة حسنة الأجر. ولكنْ إلى متى؟ قلتُ في سرّي وقد راودني القلقُ، بدوري، حول بوادر الكارثة التي تتهدّد الشركة، والتي لم اتنبّه، إلى اليوم، لكونها وشيكة إلاّ من خلال أطراف أحاديث أو من خلال مُستنسخٍ عن إشعار مصرفي يقع، بمحض المصادفة، بين يدي أو يتناهى مضمونه إلى مسامعي. غير أنّ هذا لم يكن كافياً، في نظري، للتشكيك بحسن سير الأعمال. وبأية حال، يبقى السؤال المحيِّر: إذا كنا نحن، غيغو الشريك، والمشرفة أوريولي،

(*) الشخصية الشهيرة في الشرائط المصوّرة (م.)

والمؤلف دون سيزار وأنا نفسي، معنيين، قانونياً، بانهيار الشركة بسبب الاعتمادات غير المسدّدة، فما شأن الآخرين بذلك، ولِمَ كلّ هذا القلق الذي يُبدونه؟ ولكن كفى؛ لا بدَّ أن شكوكي ستجد إجابات شافية عنها مع الوقت، والأحرى أن استغلَّ مثل هذا الوقت للتمتع بنزهتي.

لم ألتقِ في طريقي أحداً، فقد لاذ الجميع بمساكنهم لتقليب الخبر على أوجه احتمالاته. سلكتُ الشِّعاب والدروب التي تَصِلُ بين ملحقات المنتجع المختلفة مولية ظهري إلى البحر، في معظم الأحيان، وإن كنتُ أتوقف، بين الحين والآخر، للتأمُّلِ في تلك الروعة اللامبالية تحتَ لهيب شمسِ ما بعد الظهيرة. مركبٌ شراعي عند الأفق لا يني يبتعدُ متلاشياً؛ وعند رمل الشاطئ، رفرفةُ منشفة برتقالية تُركت على كرسي طويل لأهواءِ النسائم... فكانت انتهاكاً وحيداً لميثاق السكينة الشامل... باستثناء قلبي الذي راح يَخفق بنبضٍ متسارع إذ ألحَّ عليَّ التفكير بأنّ هذه الإجازة لن تتكرّر، وأنّ نيران شاطئ أغسطس 1990 لن تشتعل مجدداً...

قادني تجوالي إلى المستودع، أو المخزن أو المرآب، أو ما شئتم من التسميات، وهو المكان الأثير عندي الذي تقودني إليه خطواتي في كل نزهةٍ من نزهاتي: خان قوافل هو أغرب ما قد تخترعه مخيّلة. عند العتبة فوجئتُ بالفتى جانو(؟) أوريولي مبتعداً مُقطِّباً، فبدا لي مزيجاً من «مراهق موتزيا(*) ونبتةِ السِّلق».

(*) رأس اغريقي بديع عثر عليه في جزيرة موتزيا على مقربة من مرفأ ترابانيا في صقلية.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كان يعشق الأماكن المعزولة(والرذائل أيضاً، كما يقول ميدار، مشيراً إلى البقع الداكنة تحت عينيه)، واعتدتُ أن أراه في الغيضة إذ يظهر أمامي بغتة من خلفِ شجرة مقلِّداً دوي الطلقة بشفتيه، «بوم»، شاهراً علي مسدَّسه اللعبة. لم يلتفت إليّ، ففعلتُ مثله وتوغَّلتُ في الطراوةِ التي يشيعها جو المخزن حيث تكوَّمت حول حطام سرير ميداني مخلَّفات من زينةِ الحفلات الراقصة، وغراموفون مزود ببوق، وصناديق قبعات وخزائن أحذية غير مستعملة، بالإضافة إلى مدفأة صدئة، ورزمتين أو ثلاث من أعدادِ «دومينيكا ديلكورييري» القديمة، وتمثال نصفي للفيلسوف طاليس الذي ربَّما لم يعثر على مكان عند حافة الشرفة المقبّبة. . .

كنتُ مستغرقة في تأمّله عندما لفتني، فجأة، سوية الحائط، شخص من القش بحجم إنسان، والأرجح أن يكون فزاعة حقل أو مانوكان خيّاط. وبدا لي وجوده في هذا المكان مستهجناً: مبقور البطن ورخو كأنه فقد معظم حشوته، رأسه، المهشّم، لا يستقيم بين كتفيه المرتجلين إلاّ معلقاً بسلك حديد. ولم أكد ألحظ، ببعض الدهشة، أعواد القش وبعض القاذورات الملتصقة هنا وهناك حتّى فاجأني ميدار ماثلاً امامي كأنّه خارجٌ من مخبأ ما.

«مرحباً يا عذرائي» وقد اعتاد أن يطلق علي هذه التسمية عندما يكون مزاجه صافياً. ماذا تفعلين هنا؟»

وإذ قرأ على شفتيَّ سؤالاً مماثلاً، سارع إلى إيضاح الموقف، واستبق سؤالاً آخر حين قال: «إني أقوم بتصفية كل شيء، وسأطرد الجميع».

لكنّه وبادرة أبوية وضع يده على كتفي: «أنت لا. فلولا رداءة خطّك لكنت ملاكاً من أعلى رأسك حتى أخمص قدميك».

ـ مَلاكٌ سيئ الرسم، قلت. مع أنّ أمّي بذلت ما بوسعها».

ولكن سرعان ما استعاد آكيلا نبرته الجادَّة: «بعد الإجازة، سيتبدّل كلّ شيء، على الأرجح. ولكن إلى أن يحين ذلك، لنستغلّ آخر لحظات الاحتفال.»

وصمتَ هنيهةً مستغرقاً في التفكير ثمَّ قال: «للمناسبة، لقد نسيت».

ورأيتُ بين يديه رزمة رُبطت بشريطين متصالبين من المطّاط.

«إنّها أوراق مهمّة تخص الشركة إحفظيها جيّداً. ضعيها في الخزنة فور عودتك إلى المدينة. وإذا صودف، كما أخشى، أنني سأكون عندها في رحلة ما، فسيكون لديك متسع من الوقت للإطلاع عليها والاهتمام بها بدلاً مني».

وغادرني هاتفاً: «عاشت آغاتا سوثبي، ولتسقط آغاتا كريستي!»

واتاني ما يكفي من الجرأة لأن ألحق به وقلت له: «لقد ألّفت آغاتا سوثبي رواية»، كان اعترافي مباغتاً، فأخرجتُ المخطوطة من الكيس الذي كنت وضعت فيه الرزمة، وألقيتها بين يديه قبل أن أبتعد مسرعة.

ما إن أصبحتُ وحدي مجدداً، تابعت تسكُّعي في الأرجاء يساورني شعورٌ بأنني تحرَّرتُ أخيراً مما يثقل عليّ. تلك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المخطوطة التي طالما احتفظت بها وحملتها معي، بين علبتي تامباكس، كعينةٍ من عيّنات بائع جوّال... وكم كنتُ أتوق للتخلّص منها. ولكنْ مؤسف حقاً أن دار النشر ستغلق أبوابها؟ ومؤسف أنني لم أجرؤ من قبل...

كنتُ أشعر بالرضا، بأيةِ حال، لولا أنَّ شيئاً ما لبثَ في رأسي ملحاحاً يؤرّقني... كأني رأيتُ أو لمحتُ شيئاً حيث لا ينبغي أن يكون أو كما لا ينبغي أن يكون... وكانت هذه الفكرة تلحّ عليَّ وتقلقني: ظلّ حقيقة تتلمّس باليدين دماغي بحثاً عن هنة ما، عن صَدْع ما...

توقفت ورحتُ أدوّن، لئلاّ يضيع، ما بدا لي مجرّد انطباع دون أن أرفقه بأي تعليق سوى علامة الاستفهام. لثقتي التامة بأنني ذات يوم سأتمكن من حلّ اللغز وسأعثر على وسيلة لاستكشاف مجاهله.

مستغرقة في التفكير جلستُ على جدار صغير بين أكَمَتين، ومكثتُ جالسة لبعض الوقت غير راغبة في النهوض. سكينة غامرة، ونورٌ ساطع. عند الشفق غيمة وحيدة مشلّعة الأطراف تتشبّثُ السماء بأسمالها كأنها سربُ يمامات هاربة. وللمَّرة الثانية، في غضون ساعات قليلة، رحت أسألُ نفسي لِمَ لمْ أقع في غرامِ ميدار، مُسْتَعرضة في سرّي الأوجه المتعدّدة لما هو مغوٍ في شخصيّته: مظهره كأنّه ملك مخلوع، رطانته الساخرة، وحسّ الدعابة والمفاجأة لديه، وإحماضه الهذياني الذي يربك إملاؤه أكثر السكرتيرات خبرة... كما تراءت لي زرقة عينيه وتعرّجات التجاعيد على ظاهر يده حيث كنتُ أقرأ تاريخ الملامسات القديمة

والمصافحات الغابرة، الغاربة في الزمن، في الرماد، التالفة بفعل السنين... ومشيته، متصلّب الجسم، كيِّساً، متأنّياً ـ وقد علمتُ فيما بعد دونما حَرَجٍ ـ أنَّ ذلك بسبب ارتدائه حزام الدكتور جيبو...

وضحكتُ من القلبِ، وحدي. غير أني كنتُ أشعر بأني شخص الوسط بين شخوص البولينغ، عندما تقتربُ كرةُ الخصم منهُ متدحرجةً على مهل، باندفاعة حاسمة وأخيرة، فتقلبها قبل أن تصطدم بالحاجبِ وتتوقف؛ شخصُ اللعبة مستلقٍ كميت بين أربع شموع، بين حرّاسٍ أربعة، لا طائل منهم، يحرسون جلالته المنتهكة...

العشاء الذي أراد ميدار وفق العادة أن يُقدَّم لنا مجتمعين في الجناح المختصّ، لم يختلف، في البداية، عمّا تقتضيه أصولُ الضيافة: ثرثرات متبادلة حول نوعية الأكل، ومشاغل اليوم، والرمل والمياه، وأحلام الليلة المنصرمة... وبدا أن رقابة مضمرة فُرِضَت على أي ذكر لنوايا الناشر (إذا كانت هنالك نوايا لا مجرَّد دعابة) حول تصفية الشركة. لم يلمِّح أحد إلى هذا الأمر، وكأنَّ الخبر الذي سُجِّل مؤقتاً على شريط ما قد محاه سيلٌ متدفّق من الصور والأصوات. لذا كان السلام سائداً حول المأدبة. غير أنّ شرارة ما، مهما كانت ضئيلة، من شأنها أن تُفجِّرَ البارود الساكن وتسبب اندلاع حرب كونية مصغَّرة.

وجاءت الشرارة من طيشِ الفتى أوريولي عندما دَلَق بعض الصلصة على الثوب الصيفي لنيستيكو الراهب، ما أثار ضحكات غيغو السخيفة وتعليقاته التي ليست أقل سخفاً: ففي المحصلة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ليست بقعة الدهن سوى الميدالية التي تليق بثوبٍ مستعار؛ فعندما يفرّ عسكري من الخدمة ويصرّ على ارتداء بزته العسكرية، فإنه عندها، يستحق ما يصيبه...

«Semel abbas, sem per abbas»(*) قال جوليان في اعتراض مبدئي، مثيراً حيرتي: فما زلت لا أعلم يقيناً إذا كان هذا الراهب المزعوم، وبرغم خططه المستقبلية للزواج، قد هجر الرهبنة أم لا...

ليس هذا من شأني، فالحقيقة إنّه شأن الآنسة أوفردوز(**). لم يتسع وقتي للتفكير ملياً في هذا الأمر، ذلك أن أمراً آخر قد تجسّد فجأة، بعد اختمار طويل، في هيئةِ صفعة مدويّة لَفَت اصطفاقُها انتباه الجميع. ولا مجالَ للشكّ في هوية الضحيّة، فالقرينة واضحة على خدّ المحامي بلمندو الأيمن الذي ما زال متأجّجاً بحمرةٍ ليس مصدرها الشمس.

«مهلاً يا سيّدة كارو!» صاح قائلاً كأنّه يؤنّبُ برفق فتاة صغيرة خرقاء، ثمَّ أمْسَكَ بملعقته وراح يُعالج بها فطيرته كأنّ شيئاً لم يكن.

«أحسنتِ! حسناً فعلت!» قالت ليبيّا منتصرة لأمّها، فيما راحت هذه الاخيرة تنفخُ على باطنِ يدها كأنها تريد أن تخفّف من حرقتها. جاءت هذهِ الـ «أحسنتِ» مِثْلَ صَنْج الافتتاح إيذاناً باندلاع العدوانِ من كلّ ناحية وصوب، في مبارزات ثنائية، أو مناوشات جمعية متزامنة أو إغاراتٍ لكلّ واحدٍ على الكلّ، مرفقة

(*) راهب يوم، راهب دهر.

(**) جرعة زائدة: المقصود: ليبيا.

... إيذاناً باندلاع العدوانِ من كلِّ ناحية وصوب، في مبارزات ثنائية...

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بتحالفات ظرفية، وخيانات مفاجئة، ومكاييل من الشتائم والإهانات الجهيرة، والتلميحات التي تُهمسُ مباشرةً في الأذن. قرقعةٌ وجدتها مسلّية في البداية، ثمّ أحرجتني وسرعان ما أخافتني. لقد كان طنين الأصوات أشبه بالأسواط التي تكشف، في كل ضربة، حبكات معقّدة لأحقاد مبيّتة. أصبحتُ عاجزة عن تعدادها لذهولي، من بين أمور أخرى، حيال الخبث الجماعي الذي حجب عن بصيرتي وجوههم الحقّة، إلى دهشتي المضاعفة إزاء إصرار كلّ واحد منهم على التصّرف كأنّه لا يعير انتباهاً أو أهمية لوجودي الخَفِر بينهم.

وحدهما الفنّانان بديا سعيدين وسط هذه الهرجة التي لا توصف. فقد أنهيا طعامهما قبل الجميع ومكثا يدخّنان بهدوء ويراقبان المشهد من ركنهما بِدَعةٍ ملائكية تليق بمحتالين.

لازم ميدار ركنه ولم يفعل ما يؤكّد اشتراكه في المشهد أو عدم اشتراكه، وبدا صابراً متحيّناً دوره. وفي آخر الأمر رفع إصبعه موبّخاً بلمندو وقال: «حماسة مفرطة، يا سيدي المحامي. فقد يكون ذلك مجدياً في الدبلوماسية، وخصوصاً في الحبّ».

«أيّة حماسة؟» تساءلتُ في سرّي. الواضحُ أن الجميع هنا يتخاطبون بالألغاز التي تستغلق على إدراكي، وبدت أشدّ أستغلاقاً على أثر مداخلة ليديا أوريولي الاستعراضية.

«أنت، هيا إذهب!» صاحت، أوّلاً، بابنها، قبل أن تمسك بكتفيه وتدفعه إلى الخارج. ثمَّ عادت أدراجها مكفهرّة، ودَنَت، متقافزة، من الناشر: «هكذا إذاً، إسخر منا بعد! أيها الحيوان الجبان؟ أيها الحيوان البلا قلب!» عندها فقط نهضت سيبريين

بدورها، واقتربتِ من ليديا بخطى متباطئة حاملة كأس غرانيتا بيدها ودلقت محتواها على نهدها البارز من مقوّرة فستانها. ما اقتضى تدخّل دون جوليان نيستيكو ذي العضلات، الأشعر، بطلعته الكهنوتية، للفصل بينهما...

ما الذي يجري؟ أهي مهزلة؟ تمارين على مسرحية إيمائية؟ خصوصاً أن مجيء النجاشي حاملاً صينية القهوة قد خفّف من حدّة التوتر، فهدأ الضيوف، موقتاً، وتفرّقوا اثنين اثنين أو ثلاثة ثلاثة، وكلّ بحسب ما يمليه عليه هواه.

غادرتُ بصحبةِ أوّل المغادرين، ذلك أن دهائي، أو ما نُسِبَ إليَّ من الدّهاءِ، عنوةً، حثّني على رفض البقاءِ هناك مثل كلب مربوطٍ في عربة لا يرى، بين كوّتين، من المشهد، سوى عيناتٍ عاجلة... ولذا كان هاجسي الوحيد: أن استلقي على سريري لكي أفكّر مليّاً. غير أن ذلك لم يأتني بعونٍ كبير: فقد أخرجتُ من حقيبتي مفكرة يومياتي التي احتفظ بمفتاحها معلقاً بسلسلةٍ حول عنقي، والتي أردت أن أدوّن على صفحاتها خفايا ملاحظاتي واستنتاجاتي والفرضيات التي أخلص إليها، بالإضافة إلى أمورٍ أخرى يمليها علي مزاجي.

ما يعني:

أنّ وقع إعلان ميدار بشأن دار النشر التي يملكها، كان أشبه بوقع زلزال في مستنقع، كاشفاً ما فيه من الأفاعي والعقارب...

وأنّ هذا قد أظهر، على نحو خاص، حبكتين ذائعتين لدى الجميع، أو لديَّ على الأقل، شهدتا ختامهما منذ وقت بعيد

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وحتّى يثبت العكس، بين أبولونيوس وسيبريين، وميدار وليديا...

وأن العنصر الخامس المستبعد، أي ماتيلدا (أو، إذا شئتم، السيّدة كارو)، وبرغم ما تبديه من برودة ولا مبالاة، هي في الحقيقة كائن مكهرب لا يعرف التروّي ولو أدّى ذلك إلى فضيحة (ومن هنا جاءت الصفعة التي كشفت ـ افتراضاً ـ بعض الملامسات المحرّمة بالسيقان تحت الطاولة)...

أنّ ليبتا مهما أبدت من تصرّفات صبيانية، تقف في آخر الأمر، في صفّ والدتها، يؤيدها في ذلك، بالطبع، شيخها الروحي جوليان.

وأن آكيلا الذي اكتفى، بحسابٍ دقيق وعنادٍ وانتهازية، أن يقابل الخيانة بالخيانة، قد أبدى ردَّ فعلٍ مفاجئاً على «حماسة» بلمندو الغرامية حيال سيبريين...

وأن سيبريين، مهما كانت متحرِّرة، لا تتحمل بأن يكون زوجها متحرّراً وتعتبره ملكاً لها...

وأن ليديا أوريولي حين كانت تحث، من جهتها، هذا الأخير على الانفصال عن زوجته، قد شعرت بالإهانة من تحفّظه الطبيعي.

وأن ابنها، جاك أو جانو لا فرق، يشبهُ ميدار قليلاً، وبرغم كل شيء...

وأن.. وأن.. وأنّ

كنت متعبة، فدسست في أذني كرتين صغيرتين من الشمع الزهري، وغفوتُ وقلم البيك بين أصابعي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

IV

الأداة التراجيديّة

نام الجميع ذاكَ المساء باكراً، فاستيقظوا صباح اليوم التالي باكراً. إلاّ أنا، فقد تريّثت، على غير عادتي، متكاسلةً في السرير إلى أن رنّ جرس الهاتف. رمقت ساعة المنبّه: إنها الثامنة، لذا وجب علي أن انهض بسرعة، حتّى لو صحّ ما توقعته من أنني سأعفى من المشاغل اليومية يوم 15 آب/أغسطس هذا. وهذا ما حصل، وإن كان الأمر يختلفُ بعض الشيء عن «الاعفاء» التام، عندما أشار عليَّ ميدار بتأخير موعدنا المعتاد: «إني منكبّ على قراءة كتابك، قال صوته البعيد ـ فاحمرّت وجنتاي. سوف نلتقي فيما بعد، عند الحادية عشرة. إلى ذلك الحين، راقبي جيّداً. إنّ رهان «حجة الغياب» يبدأ هذا الصباح».

الحقيقة أنني لسبب ما نسيت... «التيتانيك تغرق وهو يرقص». كنتُ أدندن تحت الدوش. ومع ذلك لا سبيل للتملُّص. خصوصاً أن نافذتي قد تتحوّل، دون عناء، إلى مرقب حسّاس تمكّن الناظر عبرها أن يرصد كل حركة على طول السلّم المؤدي إلى المَنْظَرة أو فرجة الاستجمام، بل كل حركة من

الشاطئ وإليه. ومع ذلك لم أفهم حماقة مثل هذه المهمّة في الوقت الذي ينهمك فيه كلُّ واحد منا بمشاعر مصيرية: هل يُعقل أن ميدار غير مدرك لذلك؟ لعلّه يأمل، من خلال هذا الرهان، أن يخفف وطأة ذلك المزاج السيء الذي يسيطر على المجموعة؟ ثمّ... هل ينبغي الركون إلى الطارئ الذي أعلنه: «كفى، الشركة تغلق أبوابها»؟ أليست مجرّد دعابة يصبو من خلالها إلى إلهاء المراهنين ومَنْعهم من مراقبة سكناتهم وحركاتهم وتدوينها على الورق؟...

كانت هذه الخاطرة التي تشكك في احتمال الإفلاس، وتجدّد الأمل في أن يجد كتابي طريقه للنشر، قد استخفّتني ومنحتني ما أحتاجه من الحماسة للشروع بمهمّة المراقبة مزوَّدةً بمنظار وورقة وقلم وكوب ليموناضة وعلبة سجائر مفلترة...

إنها مجرّد لعبة، كنتُ أردِّدُ في سرّي، لكي أقوم بالمهمّة على أكمل وجه؛ لعبة قد تكون هي الأكثر إثارة. أن تُراقِبْ دون أن تُراقَب: ما يمنحك الإحساسُ بأنّك محميٌّ، بأنّك بعيد المنال! وكم أتفهَّم الآن صَبْر المصوِّر المتواري خلف جدار، والمتلصِّص الكامن وراء ستار النافذة، والقنّاص المموَّه بين أوراقِ شجرة... كنتُ أردّد هذا في سرّي وقد ألصقت عينيّ بالمنظارِ خلف ستائر غرفتي.

ماذا رأيت؟ هذه هي الملاحظات التي دوَّنتها والتي سلّمتها فيما بعد للكوميّسير كورّو:

8 و 32 د: ليبتا هي التي افتتحت سَعْيَ النهار. أراها تغادر مَسْكنها بزيّ المساجين؛ قميص مقلّمة طويلة تصل حتّى قدميها

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وتكنس الرمل كأنها طرحة عروس. ها هي تصل إلى طرف النتوء وتجلس هناك مسرِّحةً أنظارها باتجاه البحر؛ عشرُ ثوانٍ فقط، وإذا بها تتعرّى، كما خلقها الله، وتقفز إلى المياه التي تغادرها بعد قليل لتستلقي على بطنها فوق الرمالِ. عند الثامنة والدقيقة السابعة والأربعين أحاول أن أعثر عليها بواسطة المنظار، بعد أن غفلتُ عنها هنيهة لإشعال سيكارة، فلا أجدها: لا بد أنها لجأت إلى أحد الزوارق لتحقن نفسها بالمخدر، فهناك ثلاثة زوارق راسية؛ أو ربّما قفزت مجدَّداً إلى المياه وابتعدت سابحةً حتى طرفِ الرصيف (على الأقل، إنها تجيد السباحة).

8 و 48 د.: خروج الثنائي سودو ـ دوڤال. أراهما بكاملِ ثيابهما لا يفترقان، فيذكرانني، هذه المرّة، بالبرجوازيين اللذين لا يكفّان عن التجوال في «إجازة السيّد هولو»، بفارق بسيط وهو أنهما يبدوان متحفظين وبريئين، كما أرى، باعتبار أوراق الرسم التي يحملانها تحت إبطيهما وقلم «فابر» المثبت خلف الأُذُن على غرار ما يفعل البناؤون. ينطلقان في حملتهما الصباحية ليعودا منها بصيدٍ من مواد النحت والمحفورات والرسوم: ملاحظات ومخططات مبيّنة بدقة ومرسومة برشاقة على الورق كأنها خيوط العنكبوت التي يسمّيها أهل الريف غلالات مادونا...

8 و 57 د.: ميدار، يظهر شخصياً، عند الأسفل. ينظر باتجاهي ولكن من الواضح أنه لا يراني؛ إنه لا يستطيع أن يراني، الأمر الذي لا يثنيه عن التلويح بمظلته بمثابة تحية، ممسكاً بيده الأخرى مخطوطة أعرفها جيداً. ثمّ يدلفُ نحو الغيضة. ولا تمضي دقيقة واحدة حتى يرن جرس الهاتف: «صباحُكِ مرّة أخرى يا عزيزتي. أتّصل بك لأثبت ما قلته لك من

أنك في شبه عطلة. تابعي المراقبة. ما زلت منكباً على قراءة كتابك. سأتصل بك مجدداً في غضون عشرين دقيقة».

واتصل بي ليس بعد عشرين بل بعد ثلاثين دقيقة: «لقد وصلتُ إلى الفصل الثالث، أوضح قائلاً؛ لكني لن أقول شيئاً حتى الآن، سوى أن عنوانك لا بأس به، وإن كان عمومياً، فكل الروايات البوليسية قد تحمل عنواناً مثله».

أشعرُ بشيءٍ من الخيبة، فقد خيِّل إلي أنني، بهذا العنوان، قد اكتشفتُ أميركا. لكنَّ ميدار فطن إلى ما يعتمل في صمتي وأضاف بنبرةٍ تعليمية مؤاسية: «أتعلمين، إنّ تبديل الأشخاص ليس فقط في أساس كل خطة مرسومة بل هو في أساس كلّ لغز يستحق التسمية. وذلك بدءاً بالخلق الذي لن ينتزع أحدٌ من رأسي فكرةَ أنّه ثمرة سوء فهم هائل، ثمرة هِنةٍ رؤياوية... وصولاً إلى الاستبدالات الأدنى مرتبةً والتي تجري كلّ يوم أمام أعيننا والتي غالباً ما نفسِّرها على نحو عكسي. لو تعلمين أننا عندما نمحّصها جيداً، كم وكم من الطواحين تبدو في هيئة عمالقة حقاً؛ وكم من الأمور تختلط خلطاً عجيباً!»

عندما يستطردُ هاذياً على هذا النحو، تغمرني السعادة، ولعلّها واحدة من نقاط ضعفي. وأحبس أنفاسي خشية أن يستعيد نثره الركيك.

وهذا، للأسف، ما حصل بعد هنيهات: «ما حالُ الجوّ عندك؟» سألني. «كل شيء على ما يرام» أجبته. فيقول: «إلاّ إذا كان السبب سوء المخابرة، لأني بالكاد أسمعك. لا بدَّ أنّ هناك تداخلاً في الخطوط. حاولي أن تنتقلي من قرب النافذة باتجاه السرير».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

انتقل من مكاني.

«الآن أسمعك. تكلّمي بصوت عالٍ وواضح. واخبريني، أرجوك، بما لاحظته إلى الآن».

أنصاع لطلبه على الفور. «أو. كي. يقول. سأنهي المخابرة. وإلى وقتٍ قريب».

9 و 30 د.: تظهر، في وقتٍ واحدٍ تقريباً، عند عتبات مساكنهنّ سيّدات حادثة الأمس الثلاث، بطلات المنازلة الثلاث اللواتي، عَجَباً، يتوجّهن إحداهن نحو الأخرى، ويتحادثن بمودّةٍ ظاهرة، ويتبادلنَ، فيما بينهنَّ، أحاديث مشبوهة في مثل هذه الساعة! يا لطيبة سيّدات الأزمنة الغابرة!... تساورني شكوكٌ بأنهنَّ يرغبن في إصلاح ما بينهنَّ بعيداً عن مسامع الأعداء، وأن يتقاسمنَ، بمنأى عن أي مناوشات، مناطق النفوذ والصيّدَ الذكري... «كما حصل في يالطا، أقول في سرّي، سوى أنهّن ثلاث وأبولونيوس وميدار ليسا أكثر من اثنين... وإن كانت برلين، في ذلك الوقت، لم تُقسَّم إلى قسمين بل إلى أربعة أقسام...»

9 و 37 د.: غيغو يهرعُ، صُعُداً، نحو البناء المستدير المسقوف، بيده كيس ويبدو غارقاً في أفكاره. حالما أراه تعاودني مشاعر التقزُّز ويقشعرُّ بدني: مثل علكة تلتصق بنعلٍ أو حفيف مظلة تلامس الشعر...

9 و 39 د.: أسمع جرس الهاتف للمرّة الثالثة. «إذاً؟» فأقدّم تقريراً وافياً. يقول: «إني أقرأ الصفحات الأخيرة من كتابك. وأترقّب الخاتمة التي حَبَكْتِها بفارغ الصبر. فالخاتمة هي

التي تميّز بين الجيّد والرديء من الروايات البوليسية تماماً كما في وصف النساء».

يخفت الصوت، ثمّ يعلو بعد تقطّع وخشخشة: «الإرسال ضعيف مجدّداً. انتقلي من مكانك».

فانتقل ويبدي ارتياحه: «أوكي. عودي إلى النافذة سنلتقي في غضون ساعة ونصف في المكان المعتاد؛ وإلى ذلك الحين أكون انتهيت من القراءة فأطلعك على رأيي.»

في غضون ساعة ونصف... وقلبي يخفق بوم بوم. آه، لو يقرّر تأجيل التصفية والإغلاق بعض الوقت، ما يكفي لطباعة كتابي. فربما كانت تلك بداية... ولا أجرؤ على افتراض المزيد، وانصرف، مجدّداً وطوعاً، إلى مهمتي كمراقبة.

9 و 45 د.: انفضّ الاجتماع المصغّر. ماتيلدا وسيبريين تعودان إلى مسكنيهما، أما ليديا فتسلك الدرب صُعُداً باتجاهي وتمرّ بقربي دون أن تراني ثمَّ تتابع سيرها باتجاه باحة الاستجمام، على السطيحة القائمة خلف المنظرة. أراها مرتدية طبقتين من كريمات الوقاية وثمانية سنتيمترات مربعة من القماش وخمسة خواتم زائد خمسة تزين أصابعها؛ تحدّث نفسها حاملة بيدها مرتبةً قابلة للنفخ وعتاداً كاملاً من الكريمات والدوارق والأمشاط والمناشف... لكني لا أتمكن من رؤيتها وهي تهبط الدرب المؤدي إلى الشاطئ.

9 و 50 د.: أرى سيبريين تطلُّ من صدع الباب منتظرةً لا أدري مَنْ أو ماذا، أو الأحرى، أدري الآن، إذ أرى بلمندو مُقبلاً نحوها كما تظهر دمية ألعبان من علبة عجائب بنبّاض. يتهامسان

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في ما يشبه الشجار بينهما. وفجأة يفترقان بعد أن سُمِعَت صفقة مصراع النافذة في المسكن المجاور حيث يقيم المحامي المذكور بالذات. غير أني لا أرى أحداً في الجوار، لا ماتيلدا ولا أي أحد آخر.

9 و 57 د.: يغادر دون جوليان مسكنه مرتدياً لباسَ سباحةٍ يذكر بلباسِ أبطال سباق الدرّاجات في الثلاثينات. لودوك مثلاً أو هنري بيليسييه. جسمه الأربعيني المربوع يبدو هزيلاً في ثياب البحرِ كأنّه سرطان رُفِعَ لتوّه من الماءِ المغلي.

وتراودني أفكار لا أزعمُ إنها بريئة أو جيّدة حالما أراه مبتعداً بخطى متسارعة على طولِ الشاطئ باتجاه نتوء الوسط.

10 و 20 د.: يمرّ بلمندو من أمامي متقلّب النظرات حائرها مثل كلب صيد. فأتوارى في الوقت المناسب خلف الستارة، إذ رغبة لي في أن أبدو جاسوسة في عينيه. لكنني أتساءل في سرّي ما الذي يقوده الآن إلى المنظرة، فليس في حدّ علمي أنه من هواة المناظر الجميلة.

10 و 30 د.: الاستعراض متواصل. وفي الطليعة سيبريين ثمّ ماتيلدا مدججتان، هما أيضاً، بما يلزم ويفيض من عتاد البحر، طلباً لراحتهما ورفاهيتهما.

11 و 5 د.: أنهي مهمّتي وأنزل إلى الحديقة. لقد انتهت وردية هذا الصباح، ودفتر الملاحظات مسوّد بالمعلومات والتفاصيل التافهة التي اتخيلها فجأة كأنها الغبار الذي تذروه حصّادة الوقت هباءً إلى أن يحين، في أي وقت، ميقاتُ الطحن...

... أنهي مهمّتي وأنزل إلى الحديقة...

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هناك في الحديقة كان ميدار مُسلطناً على كرسيّه ينتظر، ممسكاً بين إبهامه وسبّابته بالصفحة ما قبل الأخيرة من روايتي. وما أن لمحني قادمةً حتّى تململ قليلاً في جلسته كأنّه يتهيّأ لإعلان ما، ثمّ ماطاً شفتيه، قال:

«لقد قلت لك في السابق، أنت في حاجة لعشيق. وليكن الأوفر حظاً من البلاهة. فالبُلهاء مريحون». وإذ لاحظ احمرار وجنتيّ وبكمي، قال معترضاً: أرجو المعذرة، ولكن من يقرأك يدرك على الفور أنّك تكتبين عِوضاً عن حبٍّ مفقود.

ـ «ماذا تقول؟!» همستُ قائلةً بكثير من المشقّة. فقال: «لم أقرأ الصفحة الأخيرة، ولكني أعلم، لكني أخمّن بأن الجاني ليس امرأة. ذلك أنك لا ترين في القاتل سوى ذكرٍ تخضعينه. كأنّه عوض رجلٍ غير موجود...»

لا بدَّ أنّه لاحظ سيماء الغضب على وجهي: «لم أقصد ما يسيء، أعذريني، (قال مُستدركاً). ناهيك بأن قوة الكتاب تكمن هنا».

شعرتُ بالإهانة لأني لم أجد في ما يقوله ولو جانباً ضئيلاً من الصواب، فلزمتُ الصمت. لذا أردفَ قائلاً:

«بوادر الخاتمة جيدة وإن كانت تذكّر ـ وهذه نصيحة منّي دون مقابل ـ بقضيّة روسّيل...

ـ أي روسّيل(*)؟ قتيل «أوتيل دي بالم»؟

(*) المقصود هنا هو ريمون روسيل (1877 ـ 1933) الذي توفي في باليرمو في «أوتيل دي بالم». وهو أحد روّاد الحركة السرّيالية.

ـ هو نفسه، لاعب شطرنج ممتاز، أما كنتِ تعلمين؟ لقد اكتشف، لتصفيات الملك، نقلة الفيل والخيّال ضدّ الملك وحده، وهي خطة تفضي إلى «شاه مات» مؤكّد، نظراً لحصار الملك في زاوية من الرقعة. لذا أقترح على كتابك تتمّة على هذا النحو وسوف ألقنك أصول هذه الخطّة من خلال دليلٍ مُيسَّر...

ـ لا أجيد لعبة الشطرنج، قلتُ بجفاء. إن بطلي يتنقّل، بالأحرى، على طريقة كوتوزوف. لا يعترض مناورات الخصم بعقبات، بل يتظاهر بأنه يعينه على إنجاحها، ومثل هذا التواطؤ غير المتوقّع غالباً ما يؤدي إلى إرباك المهاجم وإرغامه على ارتكاب الخطأ».

لم يصغِ إلى كلمة مما أقول.

«أتعلمين أنّ الفرنسيين عندما ينحتون بخرّاطة الخشب حاملَ العلم يجعلونه معتمراً قبّعة ويسمّونه المجنون(*)؟ وهو إسم قد يليق بالخيّالِ وبساقيه المقوّستين...» وبعد هنيهة صمت: «ويليق بي أيضاً».

وأعترف أني كنتُ أصغي إليه بإعجاب يشوبه الضيق، لكي لا أقول التململ. وليس ذلك بسبب أفكاره المسبقة حيالي أو أحكامه على كتاباتي، بل لأننا، أقصد أنا وكتابي، لم نعد سوى ذريعة لغطرسته المعرفيّة ورطانته الواهنة... اللتين، وهذا هو الأدهى، تنطويان على كناية غامضة يفترض بي أن أشارك فيها دون أن أفهم معناها.

(*) الفيل (في لعبة الشطرنج).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

أخيراً سكَتَ، وراح يحدِّقُ ساهماً في نقطة ما أمامه: بدت عيناه دامعتين، وقد شاختا لثقلِ همٍّ مفاجئ ينذُر بوخيم العواقب. «ألا يحدث لكِ أن تشعري بأنَّك كاملة؟» أردف قائلاً كأنَّه يهذي. «إني أشعر اليوم بأني كامل، قاب قوسين أو أدنى من القداسة. ولولا جهدٍ ضئيل، نقلة خيّال، لمشيتُ على سطح المياه...

ـ حديثُكَ ممتعٌ، اليوم،» قلتُ بنبرةِ استهزاء ورحتُ أحدِّقُ بمعصمه.

ودون أي تغيير في نبرته الوقحة قال فجأة: «لقد نسيت علبة سكائري في الغرفة، هلاّ أحضرتها لي من فضلك» ودون أن ينتظر جواباً نزع قبَّعته البانشوڤيا ووضعها على الأرض، ثمّ راح يمسح العرق عن وجهه بمنديل فضفاض، وأرخى رأسه إلى الخلف معرِّضاً جلحته لأشعة الشمس.

«كم الساعة الآن؟ سألني وكنتُ قد ابتعدتُ بضعة أمتار.

ـ إنها الـ...» هممتُ بالقولِ وأنا أتفحّصُ عقارب ساعتي غير أن الكلمات ذَوَتْ على شفتيّ، فقد سمعتُ صفيراً يشقُّ الهواء، ولمحتُ ظلاً أشبه بانقضاض طير كاسر، ثمَّ، كانفلاقِ جوزة، تحطَّم الرأسُ الذي كان لا يزال لهنيهات خلت، أمامي، حيّاً مفكِّراً، تحت ثقلِ كتلةٍ ما لم أعرف، للوهلة الأولى، ما هي، غير أني أدركتُ، فيما بعد، حين تدحرجت حتَّى قدميّ وتبيّن، إثر إجفالي، أنها ليست سوى التمثالُ النصفي، المُلتحي، الرخامي البارد، لرأس الشاعر المأسوي الأغريقي أشيل.

«آخ!» صرختُ بقوةِ ذعري. وهرعتُ إلى جسدِ الرجل الميت؛ نافورة دماء تتدفَّق من وجهه المهشَّم؛ ومن بين يديه

المبسوطتين كمروحة، راحت صفحات «لبْس» تتساقط ممهورةً بختمِ كفٍّ حمراء.

«والآن ماذا أفعل؟» صحتُ بأعلى صوتي كأني أَلوم الجثة على ما حدث. والجثةُ، بالتحفُّظ المعهود لدى الجثث عموماً، لم تحر جواباً.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

V

مزاد مُدَبَّر

مهما بدا الأمر غريباً ومُستهجناً، والحقيقة أني سأحمل خجلي منه ما حييت، فإنَّ أوّل ما تبادر إلى ذهني بعد نوبة الهلع، هو تذكار من أيام الدراسة: أشيل الذي سحقته سلحفاة سقطت عليه... أشيل الذي يثأر دونما تبصّر، بعد مئات السنين، من أوّل عابر سبيل....

والأغرب من ذلك أنني فيما كنتُ استخدم نصفَ دماغي في استرجاع الأسطورة القديمة، كان النصفُ الآخر يبادر إلى طلب النجدة..

كان جميع الضيوف على الشاطئ الذي قصدوه فُرادى بعد تريّث في باحة الاستجمام. وفي غضون ثلاث دقائق هرعوا كما كانوا، أي عراة؛ وما زلتُ أحْفَظُ من المشهد الذي رأيت ذكرى ألوانٍ وأصوات نافرة: كل تلك الدماء الحمراء، وسمرة الأجساد مُومئة ومتحلِّقة حول الجثة؛ وصرختي الحادة المتمادية على وتيرة واحدة مصحوبةً بولولات أخرى، دونما توقّف كصفّارة إنذار إذ تنطلق من سيّارة تتعرض للسرقة، إلى أن كتمت ماتيلدا أنفاسي

بيدها. وإذ ذاك انفردت بنفسي عند المنظرة لكي يُتاح لي أن أفكر مليّاً في ما حدث. وأن أفهم كيف حدث ذلك، ذلك أنَّ ميلي إلى فهم الأمور لطالما غَلَب عندي أي توهّم آخر سببه الأعصاب أو المشاعر.

كنتُ أودّ أن أفهم وكأنني بذلك استطيع أن ألغي المأساة وأن أعود في الزمن إلى الوقت الذي كان فيه ميدار لا يزال على قيد الحياة؛ أو أنني ببساطة، أردت أن أنجو بنفسي من أي إحساسٍ بالذنب أو الإهمال، لأبرهن لذات نفسي قبل الآخرين أنَّ ما حدث هو قضاء وقدر...

عند الدرابزين، حيث سقط التمثال، تهيّأ لي، بشيءٍ من الألم، أنَّ ثمة خطأً ما، أن ثمة هنة ما على نحوِ ما قد ألحظ جداراً خلواً من لوحة كانت تزيّنه؛ أو كما في الحُلم (الذي غالباً ما أراه في نومي) حيثُ بَصَلةُ عينٍ عمياء ترمقني... ولكني حين عاينت عن كثب موضع الانزلاق بدا لي الصلصال المتبقي من القاعدة رخواً طري الملمس، ما يُغلِّبُ الظنَّ بأنّ الحرارة قد تكون جفّفت الرطوبة الحاصلة خلال هنيهات. ومهما كان من أمر هذه القرينة ومغزاها فقد حفظتها في سجلات رأسي.

لم يستدعِ الأمر أن نلجأ إلى رجال الإطفاء لإزالة آثار دماء الناشر، فقد شهدت ما بعد الظهيرة طوفاناً من مطر الشتاء أشبه بنهاية الأزمان، قبل أن تسطع الشمس مجدداً. كان الأمرُ شبيهاً بالطوفان ولم تكن الكارثة التي خلّفها أقلّ حجماً. فقد أدّى انهيار صخري إلى قطع الطريق السريعة، وانهار جسر الألواحِ الذي

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يُستخدم كمعبر ثانٍ إلى البرزخ وجَرَفته السيول في جريانها المتعرِّج؛ ولو حصل الإنهيار قبل ذلك بنصف ساعة لما تمكنّ الكوميسير كورّو من الانتقالِ إلى القيلاّت.

ما حصل إذاً، أنهما وصلا في الوقت المناسب، الكوميسير ومُعاونه، مثل نعجتين مبلّلتين فَوَجَبَ أن تُوفَّر لهما ملابس جافة وأحذية؛ وفي آخر الأمر أمكَن توفير ما يلزم للمعاونِ ذي المقاسات العاديّة، أما رئيسه، وهو من وزن الديك على الأكثر، فلم يعثر على مانحٍ ذي مقاسات مطابقة، فإذا به يخرج من صالة الاستحمام ببنطالٍ فضفاض وكمّين يزيدان عن طول ذراعيه. لم تكن طلّته الأولى ذات وقعٍ مميّز على الحاضرين، غير أن شخصيّته التي ترفض أن تستجدي الإعجاب قد أثّرت فيّ أيّما تأثير. فقد كان هو أوّل شرطي من لحم ودم وليسَ أنموذجاً على ورق، يتاح لي أن أتعاطى معه عن قربٍ، فرَحتُ أحدجه بنظراتٍ متمعّنةَ. بدا لي أقرب إلى الخمسين منه إلى الخمسة والأربعين، كَابيَ الطلّعةِ مُتخلعاً في مشيته كأيّ ضابط فَقَدَ الأمل بمزيدٍ من الترقية. غير أنّ الحنكة (لكي لا أقول الذكاء) في نظراته تُضفي على وجهه المتوسطي الملوّح سمات الرَّجل الذي لم تستنفده المهنة كليّاً، والذي إنْ أعوزته الحماسة لطلب العدلِ والحقيقة فهو، على الأقل، لم يفقد دأبه العنيد على إتقانِ تحقيقاته.

وإلى ذلك كلّه، نسخة كتاب الجيب التي حرصَ، فور وصوله، على إخراجها من حقيبته المبلّلة ووضعها لتجفَّ قرب النار،وإن دلّ هذا على شيء فهو يدلّ على أنّه قارئ، لا بل قارئ يجيد اختيار قراءاته.

كان قد انتهى لتوّه من الاستماع إلى إفاداتنا الأوّلية، بعد أن استدعانا جميعاً، نحن ضيوفَ المكان ومرتاديه، عندما رفع المحامي بلمندو يده طلباً للكلام. وذلك، كما قالَ بشيء من التردّد، لإبلاغنا بوجود وثيقة لديه كان المرحوم قد تركها بعهدته قبل الحادثة، ومن واجبه أن يطلعنا عليها.

«ماذا، ماذا؟» قال كورّو مبدياً دهشته بعينيه اللتين تشبهان شوكتي صبّار.

«منذ بضعة أيام، أردف المحامي قائلاً، جاء آكيلا إلى غرفتي وسلّمني مغلّفاً راجياً أن أبقيه بعهدتي لبعض الوقت. وطلب مني ألا أفتحه إلاّ إذا طرأ أمرٌ خطير حال دون وجوده. سألته بعض الإيضاحات لكنّه لم يشأ أن يضيف إلى ما قاله شيئاً. وهاكم إذاً هذه الوثيقة التي أجهل محتواها». وعلى الفور وضع أمامنا ظرفاً من نسيج بلون الرَّمل مختوماً بالشمع الأحمر من ثلاثة مواضع.

كان الوقتُ قد صار مساءً لكنّ جوّ الجناح بدا خانقاً لشدّة الحرّ الذي خلّفته العاصفة، والذي لن تخفّف من حدّته مصابيحُ الكربور التي أشعلها الخَدَمُ نظراً لانقطاع التيار الكهربائي. وكان هناك أيضاً، على ما أذكر، القمر المستتر بين غلالتين من غيمٍ أسود.

«تفضّل» قال كورّو؛ فعمد بلمندو، بعد أن تثبّتَ من أختام المغلّف أمام الجميع، إلى فتحه. واتضح أنه يحتوي على ظرف كبير أبيض مغلق كما تغلق ظروف المراسلات العادية. خطفه الكوميسير من يدِ المحامي بسرعة، ثمّ فتحه وأخرج منه ورقتين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مطبوعتين على الآلة الكاتبة ومرفقتين بقصاصة كُتِبَ عليها بالقلم، وناولني إيّاها، باسطاً ذراعه فوق الطاولة، لأتلوها بصوتٍ عال.

وهذا هو النصُّ الذي تلوته بصعوبة، وتخلّلت تلاوتي بعض الوقفات ريثما اتمخّط لشدّة ما احسست به من الانفعال والتأثر:

إني أعهد إليك يا أبولونيوس بهذه الوصيّة ضمن مغلّف مختوم بحسب الأصول، وأرغب في أن تُفَضَّ وتقرأ علانيةً خلال الأربع والعشرين ساعة التي تعقب وفاتي. لا تُفاجأ كثيراً لأنني اخترتك كاتباً عدلاً. فما من مودّةٍ بيننا؛ أما صداقتنا فيرقى إليها أكثر من شك. وهذا فضلاً عمّا اقترفته بحقّي من خيانة (وأبلغك على الفور بأنني لا ألومك، لأنّك لست لا الرجل الأوّل ولا حتى الرجل العاشر في حياة زوجتي، ولاعتبرتك غبّياً لو أنّك قاومت إغواءها. فهي، برغم كل شيء، إمرأة جميلة وتمتلكُ مزاجاً مميّزاً) ثمَّ لِمَنْ سواك كنتُ سأعهد بهذه المهمّة؟ فأنت بارعٌ في مجال القانون، وأنا واثق من ذلك، ولن تقصّر في أداء واجبك. أشكرك وأقبلك إذا كان مثل هذا ممّا يُجازُ به لِطَيف.

ميدار

عَلَتْ غمغماتٌ أثناء التلاوة لم تلبث أن تحوّلت إلى هَرْجٍ من الاستنكار واللوم. بدا أبولونيوس جامداً مثل حجر، وسيبريين غاضبةً، فيما ماتيلدا ترمقهما بنظرات ناريّة. أمّا الآخرون، وبرغم الظروف التي لا يمكن وصفها بالسارّة، فقد كانوا عاجزين عن

استدراك ميلهم الطبيعي للتفكّه حيال قصّة الزوج المخدوع والعشيق التي سمعوها. كنت حائرةً يستبدّ بي الفضول لسماع التتمّة. وهذا ما فعله كورّو دونما تردّد. فبادر، بَعْد أن فرض السكوت على الجميع، إلى تلاوة نصّ الورقتين الأخريين بلهجة أهل الجنوب.

كان النصُّ يقول:

سيّدي الكوميسير أو كائناً مَنْ كنت، دركياً أو نائباً عامّاً أو كاتباً عدلاً، وتخوّلك صفتك هذه الاطلاع على مضمون هذه الأوراق، فاعلم أن كاتبها هو جثة تخاطبُ ذاكرة المستقبل من خلالها. فإنْ وقعت هذه الأوراق بين يديك، فهذا يعني أنني متّ. وليس ذلك على أثر حادثة ما، وهنا أرجو التشديد، بل بفعل فاعلٍ وإثر قتل متعمَّد وعنيف. وقد تمَّ الأمر، على ما أعتقد، بإحدى هاتين الطريقتين المحتملتين: إمّا بواسطة التيار الكهربائي الذي يتم وصله، على نحوٍ ما، بمياه المغطس الذي استحم فيه؛ وإمّا بسحق رأسي إثر سقوط كتلة صخرية عليه. قد تقول في سرِّك، أنَّ ما سبق أشبه بنبوءة مدبّرة. ولكني أمتلك تفسيراً مقنعاً ولا يرقى إليه الشك: لقد دبَّرتُ، بنفسي، نهايتي بمكْرٍ حصيفٍ بعيد النَّظر؛ لقد سلَّحت، بنفسي، يد القاتل؛ فلا يذهِلنَّك الأمر؛ وقد تقول، وهذا صحيح، أنَّ ما من عاقلٍ في الدنيا قد يرغب في أن نغادر طوعاً تلك الرذيلة اللذيذة الراسخة التي تدعى الحياة. ولكنّي، إذا فعلتُ، فلحفنةٍ أسباب وجيهة كما سترى لاحقاً إن اتسع صدرك لسماع ما سأقول.

منذ شهر تقريباً، تذرّعت ذات صباح، بمشاغلي المعتادة

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في المكتب لاستئذان زوجتي وأقصد أخصائياً للإطمئنان بشأنِ بعض الاضطرابات التي ألمت بي. وبعد ساعتين من التحاليل علمت أني مصاب بمرضٍ عضال وأنني سأموت من جرّائه في وقت قريب وأن احتضاري سيترافق مع آلام مبرحة. تلقّيت تلك الحقيقة كضربةٍ على النحر وتملّكني مزيجٌ من الخوف والغضب أعجز الآن عن وصفهما. الخوفُ حيال المرض الذي بدا لي مرعباً؛ والغضب حيال التبعات السعيدة التي سيُغدقها موتي، من دون أدنى شك، على الشخصين اللذين قد لا أمقت أحداً أكثر منهما: أي زوجتي سيبريين وشقيقها غيغو. فالبنسبة إليها سيكون موتي بمثابة طوفان من الذهب: قيمة التأمين الهائلة، وأسهم المنزل والڤيلاّ ومحفوراتي وكتبي، والحرّية المطلقة في أن تمارس رذائلها بدوام كامل. في الوقتِ الذي سيتاح فيه لشريكي المُذعن قسراً إلى اليوم، أن يتسلّل بأهون الطرق ليصبح ندّاً ويحتلُّ كرسيَّ ويدخّن سيجاري....

مثل هذه الأفكار حالت دون سعيي وراء ميتة سريعة غير مؤلمة، فتدبّرت، في ذهني، مكيدة من شأنها أن توفّر لي، ولو في الخيال، بعض الراحة بعد موتي وإن كانت بالغة القسوة.

ففكرّتُ في طريقة تجعلني أُقْتَل، إذا أمكن، على يدِ أحدهما أو على يديهما معاً، وذلك بحثّهما على التصُّرف عبر مناورات خفيَّة، موفّراً لهما، في الوقت المناسب، الدوافع الملحّة، والفُرص المؤاتية، واليقين بأنهما سينجوان بفعلتهما...

أولى هذه المناورات أني أبقيتُ أمر مرضي سرّاً، لأوهمهما بأني ورثت طول العمر عن والديَّ اللذين جاوز عمرهما التسعين. ثمّ عمدتُ إلى تزيين الطُّعمِ في أعينهما أطول مدّة ممكنة. أمّا الآن، فليس بإمكاني، في العَدَم الكالحِ الذي يكتنف كياني، أن أعرف مَنْ

منهما التهم الطَّعم، وربّما التهماه معاً، لكنّي، برغم ذلك، قادر على متابعة التحقيق بدلاً منك. ليس فقط بوصفي مجرّد شاهد اتهام، بل كتحرٍّ مساعد، على غرارِ أولئك التحريين الذين تقرأ عنهم في الروايات والذين برغم إسهامهم الحاسم في إنجاح التحقيق يتخلّون، بطيبة خاطر، عمّا يستحقونه من التكريم لرجال الشُّرَطِ المخوَّلين.

أُعلمكم إذاً أنني بدأت أزيِّنُ لقاتليّ المحتملين طريقتين مغريتين سأصفهما، طلباً للتبسيط، بطريقة الموت الحار، وطريقة الموت البارد. وأقصد بالموت الحار ذلك الذي قد يطرأ في المغطس خلال استحمامي؛ والحقيقة أنني خلال استحمامي، اعتدتُ، وهذه عادة خطيرة، أن أضعَ على رفٍّ مجاور جهاز تدفئة كهربائياً صغيراً، حتّى في عزِّ الصيف لأنّي سريع التأثر بالبرد. كما اعتدتُ أيضاً، وذلك أثرٌ متبقٍ من المداعبات الغرامية التي كنّا نمارسها معاً في الماضي قبل أن تصبح مجرَّد روتين، أن استدعي زوجتي كلَّ صباح لتفرك ظهري بالصابون. وقد نبهَّتها مراراً في الآونة الأخيرة: «إياك أن تمشّي، عفواً، جهاز التدفئة. فإذا وقع في الماء صعقني التيّار».

وكرّرت هذا التنبيه على مسامعها منذ ثلاثة أيام فيما كانت تصوبن ظهري بيدٍ متراخية. وبلَّغتها عزميَ على بيع كلّ ما أملك وتحويل الأموال إلى الخارج. وإنني، إلى ذلك، راغبٌ في الطلاق، بسببها طبعاً. وعزميَ بأن أترك لها مبلغاً ضئيلاً بمثابة نفقة يعينها على العيش لا أكثر. أما بقية ما تحتاجه من الكماليات فالأحرى أن يتكفَّل بها عشاقُها.

ولن أصفَ هنا تفاصيل ما جرى بيننا عقب ذلك، والنظرات المتوعِّدة في عينيها...

https://telegram.me/maktabatbaghdad

باختصار، إذا ما عثر عليَّ جثةً هامدةً، عائماً على بطني في مياه المغطس، بقرب جهاز تدفئة مُشرقط، متفحّماً من رأسي حتى أخمص قدمي، ومتغضّن الجلدِ في عريي... إذا جرت الأمور على هذا النحو فاعتقلوها دون تردّد ولا تصغوا إلى تباكيها: فهي التي قتلتني...

سكَتَ كورّو، لا بل قوطعت تلاوته، إذ تردّدت أصداء هَرْجٍ في الحجرةِ هي القرينة على نشوب أزمة حادة. فقد علا صياح سيبريين، وصياح ماتيلدا أيضاً ولكن لأسباب مختلفة. أما بلمندو فقد انخطف لونه وبدا مترنّحاً كأنه سيقع من طوله بين لحظةٍ وأخرى. فتدخّل الكوميسير للتهدئة: «كفى، كفى، وبأية حال فإن آكيلا لم يمت بهذه الطريقة» وفي تلك اللحظة، كان من الطبيعي جداً أن تتجه الأنظار محدِّقةً بغيغو.

بدا الشريك متمالكاً أعصابه على نحوٍ غير متوقَّع قياساً بالظروف الضاغطة؛ فقط ظلالُ تكشيرةٍ ارتسمت على شفتيه اللحيمتين متوعّدةً بثأرٍ وشيك. وبإشارةٍ من يده أسكت الجميع: «لنسمع التتمّة» قال.

جمع كورّو الأوراق المبعثرة على الطاولة وتابع التلاوة:

ما سَبَق، يُفنِّدُ السيناريو المرتقب الأوّل. لكنَّ وضعه موضع التنفيذ منوطٌ، للأسف الشديد، بمقدارٍ من التماسُكِ لدى مخلوقة متبجِّحة وضعيفة وغير جديرة. وإذا تبيّن أنها عجزت عن الإقدام على مثل هذا الفعل، تجدون، فيما يلي، خطّة أشدّ مكراً،

ذات طابعٍ مسرحي وأكثر ملاءمةً لما يستحسنه ذوّاقة مثلي. هذه الخطة هي التي أردتُ، ولأسبابٍ ستعرفونها قريباً، أن أصفها بالموت البارد والتي ستقود شريكي إلى قفص الاتهام. وقد استلهمت فكرتها من حكاية لا أدري بالضبط إذا كنت قرأتها أو حلمتُ بها، منذ عشرات السنين، تدور أحداثها حول جريمة تُرْتَكب بتطبيق مبادئ الفيزياء والديناميكا الحراريّة. وما كان ليخطر ببالي مثل هذا الأمر لو لم تتوفَّر لي، وبمتناول اليد، كل العناصر الضرورية للعملية، أقصد: الثلج، الشمس، وحَجَرٌ.

الثلج متوافرٌ لنا بكثرة، كما تعلمون، في الحجرة الصغيرة، تَحْت، خلف المرآب، لقد رأيتموه، جميعاً، يُصنَّع في الآلة، أفضل مما يُصنَّع في ثلاَّجة عادية، ثمّ يُمرَرُ عبر قوالب ليخرج منها كتلاً أو سبائِكَ تنقلها شاحنة صغيرة بعد أن تغلَّف بالقشّ وبخرقٍ من القماش. في عهد طفولتي، قبل أن تشيّد الفيلاّت، كانت المساحة تحتلّها بيوت صيّادين حيث يأتي الناس لقضاء فترات العُطَل على قدرٍ من بساطة العيش، وكنتُ اتدبَّر لنفسي قطعة من الثلج أعرّضها لشمسِ الظهيرة محتسباً زَمَنَ ذوبانها وتلاشيها. لعبة بسيطة قوامها التغيُّر والسَّراب، أشبه ما تكون، يقول البعض، بتصاريف حياتنا، والتي طالما فضَّلتُ أن ألجأ إليها كمرجع منطقي بسبب استعمالاتها المحتملة المتعدِّدة في مجالِ الجريمة. ويكفي، للمناسبة، أن يستخدم المرءُ إلى هذه المادة القابلة للذوبان، حجراً صلباً ومطواعاً... وأين أجدُ لهذا الغرض ما هو أفضل من التماثيل النصفية التي تزّين المَنْظَرة، جاثمة على مرقاتها دونما حاجة إلى أي مادة لاصقة سوى ثقلها؛ وتكفي دفعة محسوبة من الكتف والذراع لزحزحة واحدٍ منها ووضعه متوازناً، مُسلَّطاً على الهدف المحتمل بعد اللجوءِ، بمساعدة مقصّ، إلى حتَّ مقدارٍ بسيط من حافة قاعدته، لكي يُتاح، فيما بعد، ملء

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الفراغ بين القاعدة والمرقاة لا بسبيكة صلبة ثقيلة الوزن مربكة الحمل، بل بسبيكة رقيقةٍ خفيفة الوزن من الجليد الذي يتجمَّع على حوافِّ الثلاَّجة من كثرة الاستعمال بانتظار إزالته. تلك كانت إذاً آلة الموت التي فبركتها على أحسن وجه، أشبه بقنبلة مؤقتة، تُضبطُ لا بإيقاع دوران العقارب، بل بمسار الشمس القاتل.

كانت خطتي هي التالية: أن أضع كرسيّ في المكان المحدَّد الذي لا يمكن إلاّ أن يصيبني فيه أحد تماثيل المَنْظرة بعد سقوطه من مرقاته. والسَّعيَ، عبر تلميحاتٍ متكرِّرة، إلى إقناع العدوّ المتعيّن بالفكرة عبر بيان حسناتها المؤكدة: سهولة التذرُّع بحجة غياب؛ فبإمكانه أن يكون في مكان آخر وعلى مَرْأى الجميع، أثناء حصول الحادثة. انعدام أي أثر، ما من شأنه أن يعزو الحادثة إلى عيبٍ ما في المرقاة. وأخيراً، ضمان النتيجة ومردّه إلى دقّتي في مواعيدي، والاستفادة من شريك في الجريمة هو الشمس التي يمكن حساب مسارها بدقةٍ بالغة: شريك صامت يمكن الركون إلى صمته بالمطلق... خطّة من الطراز الأوّل، أليس كذلك؟ غير أنّ أصعب ما فيها كان إقناع غيغو بأن يكون هو المنفِّذ.

لقد تمكنّت، تدريجاً، من خداعه. ولم احتج إلى ما يؤجِّج النار المعتملة في داخله. فقد كان يبادلني مثل مقدار الكراهية التي أكنها له. غير أن هذا لم يكن وحده كافياً لو لم أختلق الخوف من إفلاس وشيك. وهو الأمْرُ الذي دبّرته ملوِّحاً بشبح الديون غير المسدّدة، والشيكات البلا رصيد، والأسهم المرهونة، أي جملة من الأخطاء التي أعلم أنه مرتكبها والتي وَاجَهْتُه بالتهديد بفضحها. وإلى ذلك، أعلنتُ، جهاراً(*)، عن إغلاق دار

(*) CORAM POPULO، باللاتينية في الأصل، حرفياً: أمام الشعب.

النشر وهو الأمر الذي ما أتيتُ على ذكره من قبل إلاّ تلميحاً وخلال جلسات ثنائية خاصّة كنتُ قد استدعيته إليها، مراراً، وعقدناها في المَنْظَرة على مقربة من تمثال اشيل الذي حرصتُ، للمناسبة، أن أدعوه ديموقليس ممازحاً ومشيراً إلى الخَطَر الذي ينطوي عليه مثوله متعامداً فوق رأسي. ثمَّ تحيّنت، خلال محادثاتنا، فرصةً لكي أصحبه، وكأنّ الامر مجرد مصادفة، إلى الحجرة القريبة التي تستخدم كمصنع للثلج، وهناك، متظاهراً بحنين مفاجئ لذكريات الطفولة، حدَّثته عن لعّبتي المفضّلة آنذاك وقوامُها الشمس والثلج، وأخبرته عن احتمالات استخدام هذين العنصرين بحسب ما قرأت في كتابٍ ما. وهكذا، بفضل هذه الأحاديث وأحاديث أخرى أُبقيها طيّ الكتمان، تمكنت من زرع سوسة القتل في روعه.

أقول استنتاجاً: إذا متُّ، كما توقعتُ وشئتُ، مهشَّم الجمجمةِ بضربة حجر، فلا تبحثوا عبثاً عن القاتل في مكان آخر، فهو لا يمكن إلاّ أن يكون غيغو. فهو الفائز غير الحريص في هذا المزاد المدبَّر الذي أعرض فيه حياتي للبيع...

أما مسألة تجريمه فقد صارت بين أيديكم. فإذا كان مضمون هذه الشهادة لا يكفي لذلك، اطلبوا منه أن يصف لكم روحاته وغَدواته خلال الساعة الأخيرة التي سبقت الجريمة. وأراهنكم أنّه لن يستطيع أن ينكر واقعة ذهابه إلى المنظرة. ثمّ إن سكريترتي، التي كنت قد كلّفتها بمهمّة المراقبة، تستطيع أن تمدّكم بالقرائن اللازمة على هذا الصعيد. كما أني لا أرتاب لحظة واحدة أنّه بالإمكان العثور على بصماته على المقصّ في صندوق العدّة وعلى هذه القبضة أو تلك من الحاجيات الأخرى، ولا بدّ من أنّ أحد الخدم قد لاحظ في سلوكه ما يثير الشبهات...

https://telegram.me/maktabatbaghdad

هذا كلّ شيء حتّى الآن. وإني لعلى ثقة تامّة بأنه لن يطول الوقت حتى تعض فريسة ما على أحد الطعمين اللذين أعددتهما. سأموت مقتولاً، وسأكون أنا نفسي، المحرِّض والمسؤول الأوّل عن مقتلي. غير أني أعلم يقيناً أن تواطؤ الضحيّة وحتّى شراكتها المحتملة في الفعل، ليس من شأنها أن تخفِّف من جرم القتل نفسه. وبأية حال فإنَّ اعترافي هذا سيضاعف من ألم القصاص، لأنّه يظهر للجاني بوضوح أنّه قد تمّ خداعه.

أمّا أنا فليس ما أندم عليه سوى أني لن أكون حيّاً لأستمتع بهذا المشهد. ومع ذلك، ليكن معلوماً جيّداً أنَّ آخر مشاعري كان اغتباطاً لا يوصف لأني تخيَّلت الأمر كأنه أمام ناظريّ.

أودّعكم جميعاً.

قرئ وصدِّق

المرحوم ميدار آكيلا

https://telegram.me/maktabatbaghdad

VI

ثَغَرات، مَزاعِم

ألا تَمْثُلُ في أذهانكم، في بعض لوحات عصر النهضة، شخصيّة المانح، راكعاً مضموم الكفّين في ركنٍ منعزل؟ يبدو في الظاهر غريباً عن الحدث الذي يجري في الصدارة، لكنّه، إذا شئنا، مُحرّك العَرْض كلّه، لأنّه، كما يقالُ اليوم، هو المموّل. . .

على نحو مشابه، قلتُ في سرّي، كان ميدار، برغم كونه متفرجاً بعيداً وصامتاً ومغطًّى بشرشف ومُسجّى، بفضل هايله، على طاولة بنغ بونغ. كان ميدار إذاً، آخرَ الأمر، هو مُنسّقُ المجموعة. صامت؟ بالمعنى المجازي فقط، إذا أخذنا بعين الاعتبار رسالة الغرقى التي تركها كميراث والتي أبقتنا طيلة ذلك الوقت مُسمّرين على مقاعدنا بين غاضب ومذهول وفضولي، ولكنْ يجمع فيما بيننا إحساس مشترك بكراهية مشوَّشة حيال ميتٍ ذي أساليب شائنة. هو الميت الذي بدلاً من أن يلزم الدور الذي أعطي له، تجرّأ، وإلى أبعدِ حدٍّ، على إهانةِ زعمنا الساذج بأننا أحياء. . .

ميدار آكيلا. . . لم تكد شفتا الكوميسير تتلفظان بهذا الإسم وبهذه الكنية اللذين يهتكان، بمثابة توقيع، أعراض سرّنا، حتّى علت الأصوات من كل حدبٍ وصوت بالتعليقات ومن بينها شتيمة انطلقت، ويؤسفني أن أقول، من فمِ جوليان.

وسط هذا المقدار من الانفعالات، احتفظ شخصان فقط بهدوئهما كاملاً: أنا، نظراً لميلي الطبيعي إلى التحفُّظ وإنْ كنتُ أشعر بأسىً عميق حيال الفقيد وباضطرابٍ أعمق منه حيال اتهاماته التي أطلقها بعد الموت؛ والكوميسير الذي حافظ، لمراسه الطويل في المهنة، على قناعٍ لاعب «البوكر» حيال واحدةٍ من أشدّ الألعاب تعقيداً. مَكَثَ مفتوناً بالحَدَث كطفل أمام قنبلة يدويّة، غير أنّ نبرته لم تفقد شيئاً من حيادها التام، ما جَعَلَه يلتفت، دونما أدنى اضطراب، ويخاطبنا منقّلاً أنظاره بيننا، سائلاً: «أما من تعليق؟».

لم يكن السؤال موجهاً إلى واحدٍ منا بعينه، لكنّ الواضح أنّه يتوقع جواباً في المرتبة الأولى من غيغو، وفي المرتبة الثانية، من الأرملة. ولمّا بقيا صامتين، سواءَ تحت وطأة الإحساس بالمهانة أو وطأة التشوّش الذي يعتري المذنب، بادرت ليديا أوريولي، لفظياً، إلى شنّ العدوان:

«من المؤكد إنها أجمل البدع! فقيد عزيز يوجّه التحقيق بإشارة من أصبعه، وينصّب نفسه تحرّياً ويرى ويحزر ويعالج. وربّما أيضاً، يخادع. بإمكاني القول إني أحببته والجميع يعرف ذلك، غير أني لا أرى في هذا المخرج النهائي سوى هلوسة غريبة ومجرّدة من أي برهان محسوس».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بدا كورّو موافقاً ومشجّعاً بحركات خفيفة من رأسه. فما كان منها، وقد احمرّ وجهها لشدّة الانفعال وثبتت نظراتُها في نظرات الكوميسير، وربّما بلمسةٍ من الخيلاء الأنثوي، إلاّ أن أرخت العنان لعبقريتها الخطابية التي لا تكلّ:

«لقد اعتدتُ، بفضلِ مهنتي جزئياً، ولكن أيضاً بفعلِ ميلي الشديد، حل مثل هذه الألغاز الجنائية. وهي ألغاز لا يُعثر عليها فقط في الكتب، بل يمكن أن تقرأ حيثما اتُّفق كأجزاءٍ متناثرة من السرّ العُلوي الكامِن في طبيعة الكون والإنسان...»

مثل هذا الشطط كان كفيلاً بجرّ كورّو إلى وضع حدٍّ نهائي لكياسته الظاهرة التي وصفته بها. فكشّر عن طرف أنيابه وقال مقاطعاً: «أعذريني، لم أفهم جيّداً ما تقولين. كما لم أتشرّف بمعرفة اسمك. أرجو أن تعرفينا بنفسك.

ـ ليديا أوريولي، أجابت ليديا وقد رفرفت طويلاً بأجفانها افتخاراً. إني أشرف على سلسلة «الروايات السود» في دار النشر، أي أن جرائم القتل هي مصدر رزقي.

ـ لنَعُد إلى الوقائع، لو سمحت، قال كورّو مجافياً.

ـ معاذَ الله يا سيّدي الكوميسير أن اتنطَّح للحلولِ محلّك...».

وبعد هنيهة صمت، استأنفت نقيصتَها وهذرها: «... مع ذلك، وفي حالةٍ مثل هذه، أودّ، نودُّ، أن نميّز من بين الخيوط خيطاً صالحاً، وأن نبيّن حظَّ الصدفة من حظِّ الحتم اللذين يولّدان الجريمة، كلّ جريمة... ثمَّ ما الذي نفعلهَ، نحن

الكائنات البشرية، طوال حياتنا سوى أن نجيب مُتلعثمين عن أسئلة أبي الهَوْل(*)؟»

طفح الكيل؛ وبدا كورّو في أوج غضبه: «إني لست سوى كوميسير المحلّة وأبو الهول ليس في عداد خصومي. فإذا كان لديك ما تدلين به ويساعد التحقيق فافعلي، وإلاّ انتظري إلى أن يحين دورك».

امتقع وجه ليديا ومع ذلك لم تستسلم: «كدت أن أصل إلى الجوهري في كلامي، وإنّما أردتُ، قبل ذلك، أن أبرّر شغفي بالتحقيقات البوليسية. لذا أسارعُ إلى الاستنتاج قائلة إنّ ما يزعجني في هذه الميتة هو أن الجثة هي التي تمدّنا بالأجوبة عن الأسئلة التي نطرحها على أنفسنا. أي أنّ المُجيب، بناءً على ذلك، هو شخص لا يسعه أن يجبه الاعتراضات والتكذيبات أو الانقلابات المفاجئة؛ ولا يمكن، بالتالي، إلاّ أن يبقى أسير تعليلاته ونطاقها المغلق. إذ لا أحد يسعه أن يكون الضحية والشاهد والمحقّق في نفس الوقت، وخصوصاً ميدار، الذي يعلم الجميع أنّه منذ نعومة أظفاره ليس سوى إنسان مزاجيّ وممثل فاشل. لذا أقول ما يلي: لنعمد موقتاً إلى إسكاته وإهمالِ هذياناته الثأرية وفرضيّاته المغرضة: أما إذا إتضح فيما بعد، إذا... والأحرى أن نعتمد الأسلوب التقليدي طارحين على أنفسنا الأسئلة التقليدية: ماذا؟ مَنْ؟ كيف؟ لماذا؟»

نَخَر الكوميسير وسار باتجاه باب الجناح الزجاجي وفتحه

(*) سفنكس، كائن خرافي في الميثولوجيا الإغريقية له جسم أسد وأجنحة ورأس امرأة وصدرها؛ أسميناه هنا باسمه الشائع الذي يكنّى به عن الصمت الدهري.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

قليلاً. دلَفَ هواء البَحر منه في هَبُوبٍ متتالٍ كاد أن يطفئ مصابيح الغاز.

«أكون ممتناً لكم إذا إمتنعتم عن التدخين» قال قبل أن يعود ليجلس في مكانه. ثمَّ بعد هنيهة صمت بدا خلالها أنَّه تنشَّق ملء رئتيه جرعاتٍ من الهواءِ النظيف ممزوجاً بعبارات ليديا أوريولي الأخيرة، قال: «سأجاري كلامك حرفياً؛ وأقول، مثلك، لنبدأ من الصفر: ماذا؟ مَنْ؟ كيف؟ لماذا؟ فمهما بدا لك الأمر غريباً، لقد درسنا مثل هذه الأمور في معهد الشرطة. لذا أقول لنبدأ من الـ «ماذا»، أي من حادثة الموت التي هي أكثر الوقائع تسليماً في هذه القصّة. لدينا ضحيّة، وهذا أمر لن يعترض عليه أحد حتّى أننا نعرف إسمه: آكيلا ميدار، إثنان وخمسون عاماً، ناشر. كيف مات؟ الجواب منوط بالطبيب الشرعي الذي لن يصل في وقت قريب نظراً للعزلة التي فرضت على المكان. ومع ذلك يمكن القول منذ الآن، دون أن نخطئ كثيراً في ما نقول، إنّ الوفاة ناجمة عن صدمة عنيفة بين كتلةٍ صَلدة راضّة وبين جمجمة هشّة. تبقى مسألتان من الواجب حلّهما: من فعل ذلك ولماذا؟ ولن تكون القضيّة قضيّة إذا كنّا نعتقد أنّ الأمر مجرد حادثة، فإنّ الأمر العرضيّ الطارئ لا يحتاج فاعلين ودوافع. غير أنّ لدينا البرهان على أنّ الأمر ليس مجرّد حادثة بل هو فعلٌ جنائي. فأشيل لم يسقط من تلقائه، لأنَّ المتوفّى استطاع أن يخمّن زمان ومكان سقوطه بدقة متناهية. لذا أعود إلى الاتهامات التي تضمَّنتها هذه المذكّرة وهي، بالتأكيد، لا تصدَّق وإن كانت، مع ذلك، ماثلةً أمام أعيننا كالبداهة. ولا يسعنا القول إنَّ هذا الفخّ الموقوت المدبَّر بعناية، بشراكةِ الشمس، هو مجرَّد دعابة؛ لقد أفادتني

الآنسة سكامبورينو بوجود أثر رطوبة على مرقاة الدربزين وأنها لا تجد تفسيراً لذلك، غير أن مصدر هذه الرطوبة يبدو لي واضحاً: فهناك قطعة ثلج ذابت على المرقاة وبلّلت التراب عليها...».

توقف عن الكلام: اقترب معاونه كازابيني من الخلفِ وأسرَّ في أذنه شيئاً ما. هزَّ كورّو رأسه موافقاً وأردف قائلاً: «لقد بلغني الآن أنه خلال معاينته المكان عثر معاوني في سيّارة السيّد ميمونه على بقايا ترابٍ بينها مِخْرَز، وقد لفَّت بجريدة وخبِّئت في صندوق السيّارة الخلفي. وهذا دليل كان من شأنه أن يكون حاسماً لولا وضوحه المفرط، لكنّه، بأية حال، لا بدَّ أن يستأثر بانتباه المحلّفين...».

سكت، فاستؤنفت الهمهمات من حوله. كان الجميع يُكلِّم الجميع، ولا أحد يصغي إلى أحد، فقال الكوميسير كأنه يصيح بهم: «إن مثل هذه الحبكة ليست معتادة، ولكننا سنحاول فكَّ ألغازها. فالرسالة التي سمعنا محتواها تتَّهم شخصاً معيناً. أعلم جيّداً أنه من الواجب اتباع اجراءات محدَّدة واستجوابه بحضور محام وكاتب محكمة، وأشياء من هذا القبيل. ولكني سبق أن قلت لكم بأنني شرطي من دُرْجةٍ عتيقة، واحتفظ لنفسي بالحقّ في اتباع الإجراءات اللازمة في الوقت المناسب، أما الآن فأطلب من الجميع، دونما استئذان أو مراعاة، أن يساعدوا على توضيح الأمور، ودونما اعتبار لأي اجراءات مستقبلية؛ وعليه، لِمَ لا يبادر السيّد غيغو ميمونه، مثلاً، من تلقاء نفسه، إلى مصارحتنا على الفور بما إذا كان يُقرّ بأنه مسؤول عن موت صهره أم لا؟ ولِمَ لا يردّ على التهمة الموجّهة إليه؟».

ضرب غيغو ظاهرَ الطاولة بجماع قبضته وقال: «أنا، ذلك

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الوغد؟! بلى لَوَددت أن أقتله، بالطبع، وبيديّ هاتين، أو بسكين مغمّس بالثوم، أو حتى بساطور جزّار... ولكنني بالتأكيد لست قادراً على زحزحة تماثيل وحساب طاقة الشمس، أو التنقل في الأرجاء حاملاً سبيكة ثلج، أو جارّاً عربَةَ يدٍ في الممرّات وعلى السلالم... وإذا كان هناك من فعل ذلك فهو ليس أنا بالتأكيد. إني أعتقد أن الأمر مجرّد حادثة، وإذا أردتم أقول إنها حادثة سعيدة جَرَت بمشيئة الله».

أجاب كورّو مكشّراً: «لقد تمَّ استبعاد فرضية الحادثة. فوفقاً للتحريات التي أجريتها في أرجاء المَنْظَرة اتضح لي أنَّ حتَّ طرف المرقاة لم يكن بسبب مصادفةٍ ما بل بفعل فاعل ما. ولكن قد يكون الأمر لا يتعلق بسبيكة ثلج، كما تقول، بل بوعاءٍ مليء بمكعّبات الثلج، استخرجت ببساطة من الثلاّجة.

ـ غباء مطبق، قال غيغو بإصرار.

ـ أبداً، على الإطلاق». أجاب كورّو بلهجةٍ متأنيّة مشوبة برقّة مخاتلة. «يبقى لدينا ذلك الدليل المتقن، وأقصد بذلك نبوءة ميدار. هلاّ فسَّرتَ لنا يا سيد ميمونه، كيف أمكن لميدار أن يخمّنَ بمثل هذه الدقّة الطريقة التي سيموت بها؟ وبالطبع، إني أسألك بصفة غير رسميّة، ودونما تحيّز. وذلك علماً بأنني لو كنتُ أنتَ لما أحسستُ بأنّ الأمور على خير ما يرام».

بدا أنَّ المناورة قد أثرت بغيغو. كان شاحباً متعرّقاً متلعثماً معقود اللسان، وكأنّه، في تلفته من حوله، يتوسلُ بعينيه أن تُمَدَّ له يَدُ العونِ المستحيل.

في تلك الأثناء رفع النحات يده بشيءٍ من التردُّد. «يا

سيدي الكوميسير، أنا أيضاً لدي ما أطلعك عليه: إنّه مغلّف تركه المرحوم في عهدتي قبل يوم واحدٍ من هبوط الموتِ، ولعلّه التعبير الأنسب، على رأسه. وأوصاني بأن أعلن عن مضمونه بعد وفاته، ولكنْ شريطة أن يتمَّ ذلك بعد الإعلان عن مضمون رسالته الأخرى. لم أدرك جيّداً مغزى طلبه هذا، وحسبت أنها مجرّد دعابة، شيء ما يُشبه سلسلة «سان أنطونيو»(*). والآن، على أثر ما حصل، أدركت أنَّ ما عُهِدَ به إليّ إنما هو الجزء الثاني من الوصيّة أو الإفادة، أو لا أدري ماذا. وبما أنَّ الشروط التي أصرَّ عليها المرحوم قد تتالت وفقَ ما ارتضاه، أجد أنه من واجبي أن أعلن عن ورقتي المستورة. لا أدري إذا كانت ورقة شؤم أو حسن طالع، وإذا كانت تبرئ أحداً أو تجرّمه. فمن واجبي، بأية حال، أن اكشفها وسوف أفعل».

تشويق يسود الصالة، وهمهمات مشوّشة بين الخشيةِ والرَّجاء...

«باغانيني يردّ إذاً؟»(**). قالت ليديا أوريولي بنبرةٍ ساخرة، غير أنَّ النحّات كان قد قرع الجرس الصغير الذي كان على الطاولة ويستخدم، عادةً، لإستدعاء هايله.

ظهر النجاشي كما بأعجوبة كأنّه كان ينتظر في مكانٍ ما في الجوار. أعطاه سودو مفتاح كوخه، هامساً في أذنيه ببعض العبارات؛ وفي الأثناء كنا نتبادل النظرات فيما بيننا عسانا ندركُ ما يخفيه كلُّ واحدٍ منا من ريبةٍ وشك ويقين. مجموعة جميلة من الوجوه الممتقعة والمحتقنة؛ مُتحَفُ شمعٍ واقعي... وقد طاب

(*) سلسلة من المغامرات البوليسية لمؤلفها فردريك دار.

(**) باغانيني نيكولو (1782 ـ 1840): موسيقار وعازف كمان إيطالي.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لي أن أدقّق في تفاصيله مُعْتَلِمةً في ذاكرتي موضع كلّ واحدٍ منهم ريثما أنسخه، بحرفيته، على دفتر ملاحظاتي. . .

لا أدري إذا كان قد أتيح لي في السابق أن أخبركم بأن أثاث الفيلاّت ليس أقلّ غرابةً من هندستها. وعليه، فإنّ الطاولة التي تحلّقنا حولها كانت في شكل مثلث متساوي الأضلاع. وكان كورّو يحتلُّ قمّة الزاوية فيما أقف عند منتصف الضلع الموازي، بحيث أنّ الخطَّ المنصِّف هو الخطُّ الذي يمثلُ اجتماع نظرتينا كما يدلّ الرسمُ المرفق (وأعلم أنّه في حالةٍ مثل هذه لن يكون الرسمُ مجدياً في شيء، لكنّه يجعلني أشبه بآغاتا كريستي. ثمّ أن السيرك الذي أنشأته بحلباته الثلاث، لكي لا أقول مختبر التجارب، يفرض عليَّ ألاّ أهمل تفصيلاً، مهما كان تافهاً).

هاكمُ الرسم إذاً:

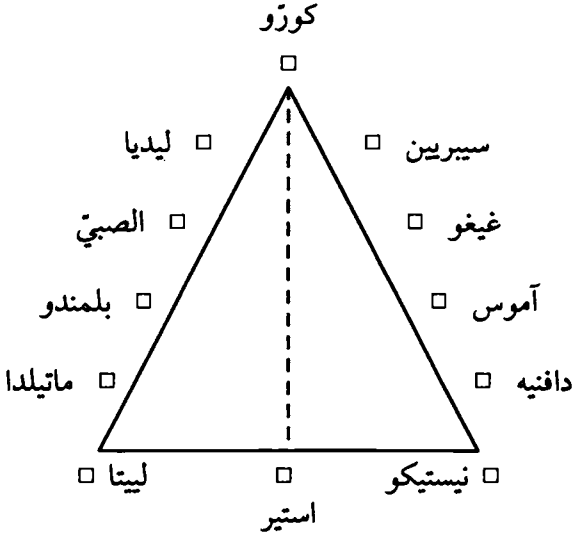

التوزيع، كما يتضح من الرسم، هو توزُّع ثنائي بحسب الأزواج، باستثناء ليبتا وجوليان اللذين تمّ فصل أحدهما عن الآخر بطلبٍ من الكوميسير الذي رأى أن اجتماعهما قد يكون سبباً إضافياً لشرودهما. وإذا بي، دونما قصد أو تعمّد، أقف بينهما مثل جدار فاصل: هو، من جهةٍ، ولكنْ هذه المرّة، والمرّة الواحدة استثناءً لا قاعدة، بلا صُحُفِه المعتادة، وهي، من جهة، ولكنْ، لحسن الحظّ، على غير ما اعتادت عليه من الحماسة والاندفاع، وإن كانتْ، في حالتها هذه، أكثر شبهاً بتلك الممثلة الفرنسية التي تُدْعى، إن لم تخنّي الذاكرة، ميوميو(*). وقبل أن يراودني إحساسٌ بالحسد حيال خصلةٍ من شعرها الكستنائي تدلّت على الخدّ والتصقت به كعلامة استفهام، دخل النجاشي علينا وسلّم سودو مغلّفاً مماثلاً، في أوصافه، للمغلّف الذي كان في عهدة المحامي سوى أنه لم يكن مختوماً بالشمع الأحمر بل مربوطاً بشريط.

بدا كورّو كأنّه شاخَ فجأة وقال بنبرة متضجّرة: «دعني أرى».

اتخذ صوته نبرة رتيب الخدمةِ في ثكنة. والواضح أن وتره الإنساني ووتره السلطوي يهتزّان، لديه، بوتائر متعاقبة.

وبعد أن تناقلتها الأيدي من النحات إلى غيغو إلى سيبريين، وصَلَت إليه الوصية الجديدة. أما أجواء الترقُّب والتشويق التي سادت في تلك الأثناء فيستحيل وصفها.

(*) Miou - Miou

https://telegram.me/maktabatbaghdad

نزع الشريط المربوط بسهولة، وفتح الكوميسير المغلّف وأخرج منه ظرفاً، غير أنه بدا، هذه المرّة، محكم الإغلاق.

رازه كورّو براحة يده: «إنه حقاً صنيع غريب، قال بشيء من الحيرة. تماماً بعكس الأوّل: فهناك كان المحتوي مُحكَم الإغلاق، والمحتوى يَسيرُ المنال، أما هنا فالمحتوي يسير المنال والمحتوى محكم الإغلاق. لا بدَّ أن الأمر له معنى».

ثمَّ بنبرةٍ جائرة قال: «موقتاً سأبقي الظرف مغلقاً».

وردّاً على اعتراضاتنا أردف قائلاً: «أولاً، كلّنا نحتاج إلى بعض الراحة. أنتم، لكي تستعيدوا صفاء سرائركم؛ وأنا لكي أتعافى مما نلته من البَلَل ولكي أفكر قليلاً دون الرُضوخ، على غرار جثة، للإيقاع الذي تزعم الجثة أنّها فرضته عليّ.

«ثانياً، لأنّه ينبغي التثبّتُ من كون الضحية حليفاً أم عدّواً، ومن كون لعبته لصالحي أو ضدّي...

«وثالثاً، لأنَّ هذا لصالح الجميع...».

وحدج بلمندو بنظرةٍ تواطؤ وقال: «يا استاذ، أنت من أهل الكار، ولا بدَّ من أنك تفهم ما أعني. ذلك أني أجهل تماماً ما هو حكم القانون على أي مبادرة قد اتخذها بنفسي في ظلِّ غيابِ قاضٍ مختص. وخصوصاً إذا كان الأمرُ، وهذه هي الحالُ على ما يبدو، يتعلّق بفضِّ وصيّة شخصية...»

ثمَّ التفت إلى سيبريين وسألها بكثير من اللباقة عمّا إذا كانت تتكرَّم بإيوائهما، هو ومعاونه، لهذه الليلة. الأمر الذي أتبعه بما يشبه الإعلان الرسمي: «رُفِعَت الجلسة. سوف نلتقي غداً».

كانت الساعة تقارب منتصف الليل وبعد يوم مشحون وطويل تفرّقنا وسعى كلٌّ منا للإستعانة بما توفرَّ لديه مَن وسائل الإضاءة لتلمُّس طريقه إلى العشاءِ والنوم. كانت العاصفة قد خلّفت بعض الأضرار إذ أحالت مَدْرج الهبوطِ على الترابِ المركومِ مُستنقعاً موحلاً. والآن وقد مات آكيلا (وهو الوحيد القادر على قيادتها) لبثت الهليكوبتر جاثمةً تحت سقيفة القصب التي تظلّلها. لقد حاول كورّو طَلَب النجدة بواسطة الهاتف ولكن عبثاً، والنتيجة أننا محكومون بالعزلة التامّة وأن نتدبّر أمورنا بالتي هي أحسن حتى صباح الغد. دعوته لتناول بيضتين مقليّتين في حجرتي؛ وخلال انهماكي باعداد الطعام رحتُ أروي له تفاصيل الرهان الذي لم يتمّ، والملاحظات التي دوّنتها بشأن تحرّكات الآخرين صباحَ وقوع الجريمة.

أصغى بانتباه، ودسَّ الورقة في جيبه، ثمَّ وقف خلف النافذة كأنّه يريد أن يُعاين بنفسه ما أمكن أن أراه من خلالها. بديهيّ أنَّ العتمة كانت تحجب كلّ رؤية باستثناء البحر الهادر من الخلف، بأصداءِ العاصفة، لكنَّه الهدير الذي لا يخدع أحداً، مُتراخٍ ومنهوكٍ كأنَّه يُغالب النعاس. حتى السماء انقشعت غيومها ولم يبق فيها من أثر العاصفة سوى مشحاتٍ عائمة كأنها حفنة عشبٍ مُبَعثرة فوق حقلٍ حليق...

راح الرجل يحادثني بكثير من الالفة: «إني أثق بك، وأجد حضورك محبّباً، وهذا ما احتاجه. فهنا، في هذا المنتجع أراني على أرض عدوّة. وليس بجانبي سوى كازابيني، لكي أصمد في وجه المصاعب».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ثمَّ أصاخ السمع، ودنا من النافذة بحذر؛ فتحها بحركةٍ مباغتة ثمَّ عاد وأغلقها.

«ما الذي سيحدث؟» سألته بتوجّس.

ـ لا شيء وكل شيء، أجابني قائلاً. لدينا تلك القنبلة، تلك الرسالة التي لا بدَّ من أن يرغب أحدٌ ما في الإطلاع عليها قبل الآخرين...

وتلمَّس بيده جيبه الأيمن.

«... إنّ هذا الميت الفَصيح محاطٌ بمدبرةٍ من الاتهامات والشبهات. أما من ناحية أخرى، فهناك الأمر الواقع، وهو اضطراري للبقاء هنا لمدَّةٍ غير محدّدة ريثما يصلنا العَوْن...»

فكّر قليلاً وعاد إلى النافذة حيث وقف خلف الزجاج المضاء كأنّه يريد أن يكون هدفاً مرئياً معرَّضاً لأنظار أحدٍ ما. ثمَّ سحبَ من جيبه شيئاً ما لم أتبيّنه لطولِ كمّه.

«إحفظي لي هذا؛ قال بلهجة صارمة. سوف تردينه لي غداً».

حدجّته بذهول. فالشيء الذي يريد أن أحفظه له ويلحُّ عليَّ بإيماءات صامتة بأن أقبله، ليس سوى مغلَّف آموس، ولكن بداخله، كما تبيّن لي بعد أن فككتُ شريطه، استبدل الظرف الذي كان يحتويه بنسخة كتاب الجيب الذي بهتت ألوان غلافه بفعل المطر.

«مهما حصل، همسَ قائلاً قبل أن يغادر، فإنَّ كازابيني في الجوار».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

VII

باغانيني يعزفُ مرّةً ثانية

ليلةٌ ليلاء كانت! لم استطع أن أغمض عيني بَعْدَ كلّ هذه الانفعالات والمفاجآت، ولم يكن آخرها أقلّها شأناً. لقد اختارني كورّو ـ والأمر لا يحتملُ تأويلاً ـ كطُعم حتّى دون أن يطلب موافقتي. والدليل القاطعُ على ما أقول هُو هذه الرزمة الملفّقة التي وَضعَها، جهاراً، في عهدتي آملاً أن يرى المجهول القابع في العتمة ظلّه الذي بدا واضحاً عبر النافذة المضاءة. كأنني قطعة جبنٍ دُسّت عمداً بمُتَناول شمّ ذلك القارض غير المرئيّ وتحت أسنانه...

كان من الطبيعي أن أشعر بالغيظ، وكان الغيظُ يتآكلني، ولكني أكظمه اجتراراً، واستعدّ للنوم بعد أن أدسّ الرزمة المزيّفة تحت الوسادة. لم يكن حنقاً وحسب، بل أيضاً، وهذا اعترافي، ذلك الاحساس بالرعب إزاء عدوانٍ محتمل. أما كازابيني وقد وردَ ذكرُه... فالأحرى أن أقول إنّه لا يَصْلُحُ إلا كحاجبٍ لمصحّة... وإذا كان من واجبه أن يَسْهَر على سلامتي، فلنرَ، بحق السماء، حتّامَ ستغالبُ عيناه النعاس؟...

وهكذا، إذ تألّبت علي كل هذه المخاوف، ومتشبّثة تحت الغطاء بمقصٍّ، ومحصَّنةً تحت خباءِ الناموسية الشفيف، قرّرتُ أن أجبه مخاطر العتمة.

كنت أسير فوق أرضٍ ذات خطوطٍ متلويّةٍ ومنحدرةٍ باتجاه البحر. كنت أحلّق برفرفةٍ صامتة، منعتقةً من ثقل الجاذبية عبر الروعةِ العصيّة لشفقٍ هاذٍ. «ما هذا المكان؟ أين أنا؟». ولم يكن في سؤالي شبهة حَضرٍ أو قلق، بل مجرد شعورٍ مطمئن بالثقةِ والرضا: تماماً كالإحساس الذي ينتابك حين تَضَعُ فيشةً في الجوكي بوكس وتنتظر. كنتُ سأسمع الجوابَ يتناهى إلى مسمعي من موطن الآلهة أو من منصَّة، فحلّقت للقائه عبر ممرٍّ هوائي بين صفّين من المقاعد، وإذا بها فتاة صغيرة نحيلة القامة، شعرها مربوط بشريط، مريولها وبعض أصابعها ملطخة بحبر أحمر، أمّا أصابعها الأخرى فملطخة بالدم، بدم أحمر، فاقع اللون طازج كأنّه يسيلُ، للمرّةِ الأولى، من جرحٍ صميم ومعيب.

«أين أنا؟ ما هذا المكان؟» أحلّقُ فوق غابة، فوق مَرْجة. أرى عجوزاً مستلقياً على أكوام من العشبِ الذابلِ، وأرى قرشين نحاسيّين يغطيان عينيه. أعلمُ أنّني أحلم، وأنّه إذا كان من الصعبِ أن نصادفَ في حياة كلّ يوم أناساً ليسوا أشباحاً... ولكنْ كفى؟ العجوز يتحرّك. إنه ينهض وَيسيرُ، يلتفتُ نحوي بعيني أعمى جاحظتين، الآن يقف، ساكناً، حاسر الرأس، على بلاط مدينة، على ممرٍّ للمشاةِ في مدينة مزدحمة، مكتوبة بالرياح وتتلوّى في

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كل لحظة وتنبسط وتتلاشى... إلى أن تمحى تاركةً مكانها لاتساع سَهل مترامٍ حيث أهوي صارخةً محطمة الجناحين.

«أين أنا؟ ما هذا المكان؟» تساءلت مرّة أخرى، وإذا بي أستيقظ فجأةً بقلبٍ خافق.

«تشاو، استير، قلتُ في سرّي. لا تخافي، هذا أنت» وكما يحدث لي عادةً في المواقف الصعبة رحتُ أطمئن نفسي وأشجعها بكلّ ما أوتيتُ من عاطفة: «هيا يا أستير، إهدئي. إهدئي أيتها النحيلة الضامرة!» تلك هي النعوت التي كانت تطلقها عليَّ زميلات الدراسة اللحيمات اللواتي يحسدنَ تفوقي عليهنّ.

في تلك اللحظة أحسستُ بملمسٍ معدني بارد، فأرخيتُ أصابعي المخدّرة كيما ينزلق المقصّ من قبضتي وجلستُ مجفلةً في سريري. لا، لن اضطرّ لاستعماله لم أجد أي غريب قرب سريري. ومع ذلك لا أدري أي احساس بالخطر الداهم قد ساد الغرفة وتغلغل، بفضل وُسطاء مجهولين، إلى أعماق وعيي الراكد. فركت أجفاني: انعكاسٌ أصفر يصبغ الحائطَ الشرقي، قبالة النافذة، متناثراً في التماعات منيرةٍ متماوجةٍ وعابرة؛ وطقطقة مستديمة لا تتناهى إلى السَّمْع مباشرة، بل يُدركها الخاطرُ تخميناً؛ طقطقة أشبه بحفيف حمْلٍ من القشّ وسط حَقْلٍ ما؛ نهضتُ مشوّشة الفكر، وهرعت إلى النافذة لأرفع ستائرها. كان اللّهبُ يغطي السماء، ومصدرُه واضح الجهة، إنّها الكنيسة عند التلّة؛ إنّها تحترق. تلحفت على عَجَلٍ بمبذلي وهرعتُ عبر السلّم باتجاه المَنْظَرة.. وكنتُ آخر الواصلين إلى هناك: لقد سبقني الجميع (أو الجميع تقريباً بحسب ما تراءى لي وما رأيت)

ووجدتهم واقفين هناك عند الدربزين يتأمّلون المنظر، فحسبتني في مشهد من «Quo vadis ?» برفقة نيرون وصحبه، ولم يكن ينقصنا سوى القيثار؛ والفرق الوحيد أن الحرارة التي كان يشيعها الحريق مضافة إلى القيظ الذي خلّفته العاصفة، كانا يَجعلان هواءَ مقصورتنا الملكيّة خانقاً. مقصورة غريبة لمتفرجين غريبي الاطوار حرصوا على ارتداء اكثر أزياء العُرْيِ ارتجالاً وهجنة...

سمعت أصواتاً تقول إنه سيستحيل علينا إخماد النيران نظراً لافتقادنا المعدّات والطاقة البشرية. لذا من الأفضل التريث ريثما ينهار البناء من تلقائه بعد أن يحترق فيه ما هو قابل للإشتعال. ولحسن الحظ أنه ما من رياح...

كانت عيناي تبحثان عن كورّو عندما فاجأته في وضعية الجاسوس المضحكة مُنحنياً بين تمثالين فوق الدربزين، مولياً الجميع ظهره، ومستغرقاً في تمحيصِ العتمةِ المترامية في الأسفل. كان مرتدياً الشورت وواقفاً على رؤوس أصابعِ قدميه، متطاولاً بساقيه السمراوين والمقوّستين قليلاً، إذا توخيّتُ الدقّة...

ربَتُّ على كتفه فأجفلَ ثمَّ أبدى ارتياحاً لأنه رآني، وبعدَ ثوانٍ معدودة توارى عن أنظاري...

لمحته مجدَّداً عندما خمدت النيران ولم يبق منها سوى عمود متشاهقٍ من الدخان أشْبَه بنفخةِ غليون. ولمحته مرَّة أخرى وهو يصعَد السلَّم مصحوباً بكازابيني، رافعاً يده، كما رفع برسيه يده شاهراً رأسَ غورغون، بكُتْلة مروِّعة من الشعر المستعار الأشقر الذي قد تستخدمه امرأة.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«ثمة ساذج، صاحَ مخاطباً الجَمْعَ في ذهوله، قد استغلَّ الحريق، والذي اعتبره، بأية حال بفعلِ فاعل، وحالة الارتباك والفوضى التي أعقبته، للتسلُّل إلى حجرة الآنسة إستير. وكان يأمل، بالطبع، أن يعثر فيها على الكنز. لقد أخطأته بثوانٍ مع أنَّه خلَّف وراءه ما لا يُستهان به». ورفع يده ملوِّحاً بالشعر المستعار.

سَرَت غمغمة بين الحضور وسرعان ما تحوّلت إلى حالةِ تعجُّب عندما أردف الكوميسير قائلاً: «كان يسعى، بالتأكيد، وراء الوثيقة التي تسلمناها من آموس غير أنّ جهودهِ ذهبت سُدى. فمؤسف حقاً ألاّ يُثمِرَ هذا السعي الحثيث إلاّ كتاباً من كتب الجيب. ولكن لا تكرهوا شيئاً لعلّه خير لكم. فقد يكون ما جناه مفيداً لثقافته».

كنّا، جميعاً، مرهقين نغالبُ النعاس. وكان خلاصاً لنا بالفعل أن يُسمح لنا بالنوم حتى الظهر. أما بعد الظهر فهناك دعوة لجمعية عمومية عند الرابعة تماماً في ردهةِ الجناح.

كنتُ واثقةً من أن كورّو سيدعو نفسه مجدّداً إلى غرفتي، ظهر يوم غد، لتناول طعام الغداء، وهذا ما حصل بالفعل. لم أكن لأستحسن على الإطلاق، أو ربَّما العكس، مجيئه بمفرده تاركاً معاونه، بسلوكٍ لا يمكن وصفه بالديمقراطي، بصحبة النجاشي في أروقة المطبخ. ثمَّ إني، لشحٍّ في المؤن، ولضآلة طبّاخي الكهربائي، ما كنتُ أملك الكثير لأقدّمه له، ومع ذلك كان يُبدي سروره بهذا القليل ماضغاً طعامه أثناء تبادلنا الأحاديث. هكذا علمتُ مثلاً أنني لم أكن معرَّضة لخطر حقيقي

مساء أمس لأنّهما كانا، هو وكازابيني، يراقبان المكان.

«كنتُ لمحت خيالاً على السلّم، قال. فأردت أن أحث هذا المجهول على ارتكاب فعلة...»

وتمثُّلاً بعادة ربّ عملي السابق التي انتقلت إليّ بالعدوى، أردتُ أن أتكلّم بلغة مصوَّرة: «كانت الأمور لتسير على خير ما يرام لولا مناورة الإلهاءِ بالنار، قلتُ، لولا الحريق لأمكن اعتقال الفاعل بالجرم المشهود.

ـ بالتأكيد، قال كورّو موافقاً؟ حتّى أنا انطلت عليَّ المناورة وكانت النتيجة أنّه أفلت من يدي.

ـ لِمَ هو؟ قلتُ معترضة. أليس من المحتمل أن يكون إمرأة؟

ـ بأداة تمويه مثل هذه؟ لا أعتقد أن إمرأةً تجرؤ على اعتمارها.

ـ محتمل. لكنّ هذا النوع من الأشياء لا نجده عادةً في خزانة رجل.

ـ أجل؛ ولكن ما من رجلٍ من بين المعنيين هنا إلاّ ويستطيع أن يَصِلَ إلى خزانة ملابس نسائية...»

تابعنا حوارنا على هذا النحو، سؤال تليه إجابة سريعة وبالعكس، لمدة غير قصيرة، مفنّدين مواضع الخَلَلِ في إجابةِ كلٍّ منا بكثير من التفهُّم والتعاطف، إلى أن أزفَّ موعد التجمُّع الذي، واخجلتاه، وصلنا إليه متأخّرين.

جلسنا كلٌّ في مكانه حول الطاولة ولم يلبث كورّو أن رمى

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عليها، وبحركة مسرحية ظاهرة، باروكة الشعر المستعار والظرف الذي ما زال مختوماً بالشمع الأحمر.

ثمّ أمسك بالشعر المستعار وسألَ بنبرة صارمة:

«ـ لِمَنْ هذه؟

ـ إنها لي، أجابت سيبريين بصوت خفيض. لم أستعملها ولم أرها منذ بضعة أشهر».

كنتُ واثقةً من أنها تكذب وهمَمْتُ بالكلام، غير أن الكوميسير سبقني. «هذا ليس مهمّاً. فأنا لا أعلّق أية أهميّة على هذه المناورة الليليّة وإن كانت مفرطة في وضوحها. فغرض الجاني، كائناً من كان، واحِدٌ أحَدْ: أن يعرف مضمون وصية ميدار الأخيرة قبل الآخرين. والأرجحُ أنّه عقد العزم على إتلافها. والآن، وقد باشر العمل على ذلك وأخشى أن ينجح في مسعاه، أجدني مُجْبَراً، وبصرفِ النَّظَرِ عن أحكامِ الصواب والخطأ، على إجراء تلاوة علنية لهذه الوصيّة لأسبابٍ موجبة. ولهذا الغرض بالذات استدعيتكم للاجتماع في هذا المكان».

صمتُ تشويق سَادَ الحضور.

«كما تلاحظون، إختفى المغلّف. قال كورّو. والأرجح أنّه رُميَ في البحرِ، أو التهمته نيران الحريق؛ وفي داخله الكتاب الذي أضنُّ به؛ وبأية حال سأشتري نسخة أخرى منه. ولكنّ ما أتلف ليس سوى المحتوي، والمحتوى ما زال بين أيدينا، وها هو، أمامكم، على الطاولة.

أمسك بالظرفِ ومرّره على الجميع حول الطاولة، كما فعل

في المرة الأولى، لكي يتثبت كلّ واحد منا من كونه على حاله لم تمسّه يد؛ ثمّ فتحه ببطء محسوب، وأخرج منه بضع أوراق أعطاها للنحات لكي يتلو محتواها.

«الأمر عائدٌ لك، قال. لأنّها كانت في عهدتك».

وتلا آموس النصّ بنبرةِ ضابطِ صفٍّ متقاعد:

إلى حضرة الكوميسير أو من ينوب عنه، إلى السادة القضاة، أو من يقوم مقامهم،

في إبطالِ ما سبق، أيّها السادة المستمعون. إنّ صهري غيغو بريء. إني أكرهه، وهذا بديهي. ومع ذلك يكفي أنني سبَّبتُ له هذا المقدار من الخوف. أمّا بعد، فإنّ استخدامه، في البداية، كنقطة اعتلام زائفة لم يأتِ في الحقيقة سوى في معرضِ انكبابي على رسم خطة أنفذ من سابقتها سيتم إطلاعكم عليها في وقت لاحق. اكتفي الآن بتبرئته من التهمة، وهذه الرسالة الثانية التي تبرئ ذمّته لا بدَّ من أن تُربك الجاني الحقيقي.

ولكن قبل أن ندخل في التفاصيل، إسمحوا لي ببعض الهذر استطراداً. أنا الموقّع أدناه ميدار أكيلا، ويصلح هذا التعريف لمن لا يعرفونني جيداً أو الذين يجهلون كلَّ شيءٍ عني، أقول إني بإزاءِ الحياة رَجُلٌ ورِعٌ وجاحد. ورع وجاحد، ومع ذلك عاشق للحياة! عاشقٌ للفصولِ، للساعات، لأدنى حركة من حركات الذاكرة والرغبة، لقوس قزح المشاعر(أقلباً كان أم وعياً، لا فرق) الذي يشعُّ تحت جلدي، وعلى جبيني، وأحياناً يهمسُ وأحايين يصرخ بأعلى صوت ذهوله لكونه أنا !...

https://telegram.me/maktabatbaghdad

في هيئة لعازر المنتقم...

كلُّ هذا سيصل إلى ختامه قريباً، وهذه كارثة لا تُحتمل. فكيف، والحالُ هي الحالُ، لا أسعى للبقاءِ من بعده ولو رَدْحاً يسيراً، ولو في هيئة طيفٍ ناطق في هيئة لعازر المنتقم؟ ولهذا السبب أُبعث من خلال هذه الرسائل: لكي يُحْسَبَ لي حسابٌ لأمدٍ أطول قليلاً، لكي أُنزل العقاب والثواب، لكي أدهشَ العالم لمرَّةٍ أخيرة...

إسمعوني إذاً، ولا تبخلوا بالتصفيق. وهذا هو العُرْفُ خلال حفلةٍ ساهرةٍ أو حفل وداع، عندما يغادر المُمثِّل، بارعاً أو بائساً، خشبة المسرح.

أبدأ بذكرى من ذكريات الطفولة؛ أمسية وادعة محفوفة بالأضواء، والانخطاف من الدهشةِ والرعب، في مقعدٍ من الصفِّ الأمامي: «هيّا، هيّا، يا ميسّالين!» يصيحُ المروِّضُ، فتقفزُ النَّمِرةُ صاغرةً، وتعبرُ دولابَ النار. ثمَّ حان دور لاعب الخفَّة والمهرِّج والبهلوان والسَّاحر. أَحَدهُم، ويدعى ڤاليمار، بقيت ذكراه محفورة في نفسي. «أنظروا إليَّ» كان يقولُ بصوتٍ خفيض، ويَنْصَرِفُ إلى تحريك أقدامِه المقلوبةِ برشاقة لا توصف، فأحْسَبُ أنَّ الكون بأسره صندوقةٌ لا تُسنفدُ أعاجيبها حيث الفتيات الصغيرات والحمائم، السيوفُ وأشعة الشمس تتبادل أسماءَها وأدوارها باستمرار.

«يا سيّدي السَّاحر، كنتُ أتوسَّل إليه إثر كلِّ عرضٍ جاذباً طرفَ سترته، أرني كيف تفعل، أرجوك» فيعمد، عِوضَ الجواب، إلى نثر حفنة من الملبَّس في الهواءِ فتستحيل، في سقوطها عليَّ، رذاذاً من مناديل ملوَّنة...

https://telegram.me/maktabatbaghdad

«انظروا إليّ» أقول لكم بدوري. واعلموا، رغم ذلك، أنَّ شعوذتي لن تطالعكم بمفاجآت سارة، بل بدموعٍ وفظاعةِ تجريمٍ بَشِعٍ لا مفرَّ منه.

بادئ ذي بدء، حاولوا أن تمعنوا النظر في المغلَّف الماثل أمامكم، والذي وضعته بحسب الأصول في عهدة النحّات سودو في 14 آب/أغسطس عند الرابعة عصراً، وهذا ما قد يؤكّده بنفسه أمامكم، وبسذاجةٍ لا يُحسد عليها.

وستلاحظون، من دون شك، أنَّ المغلَّف الخارجي يمكن فتحه بسهولة في حين أنَّ بلوغ محتوى الظرف الداخلي دونه أختام الشمع الأحمر التي ينبغي فضّها لهذا الغرض....

أوقف آموس تلاوته ريثما يبلّ ريقه بجرعةِ ماء. فانتهزت دافنيه الفرصة لتسأل: «لقد اختلط عليَّ الأمر. أي مغلَّف؟ فأنا لا أرى هنا سوى مَحَارة بلا صَدَفة.

ـ ألا تذكرين أن الصدفة قد سُرِقَت؟ قال كورّو بنفاد صبر. وليس باستطاعة الميت أن يعلم بذلك مسبقاً..»

غير أنَّ آموس كان قد عاود التلاوة:

لِمَ أردت أن ألفت انتباهكم إلى هذا الأمر؟ ذلك أني لم أفعل هنا ما فعلته في السابق. فقد أغلقتُ الظرف السابق ببعض البُصاق لا أكثر. أيدهشكم ذلك؟ أتعتقدون أن ذكرياتي تخونني؟

وأعلمُ، من الآن، أني بنقلاتي البارعة كلاعب شطرنج أعمى سوف أهزمه؛

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لا؛ ما أقوله هو الصحيح: لا ختم، بعض البصاق وحسب... فبذلك أحثُّ المؤْتَمن عليه أن يفتح الرزمة قبل موتي، ولكني في الوقت نفسه أنصبُ له فخّاً... وأملي أن يعمد المتطفِّلُ، إذ يتنبّه إلى غياب الأختام المذكورة عمداً في الرسالة، ظنّاً منه أنَّ غيابها ليس إلا من قبيل السهو والنسيان، إلى استدراك هذا السهو بوضعه الأختام بمبادرة منه. حِرْصٌ مفرط من قبل المصحِّح؛ حرصٌ غير حريص يكشف اليوم بوضوح عن هويّة مرتكبه ويبرهن على التزوير!...

ولكن هل ستجري الأمور كما هو متوقَّع؟ وهل سيُطبق الفخُّ على الفريسة؟ أيسعكم، انطلاقاً من بكورة الظرف أن تستنتجوا، وهنا المفارقة، اليقين بأنّه فُتِح؟ ليس لي أن أعرف يقيناً، لكنّي أخمِّنُ أن بلى. فأنا أعرف ضالتي حقّ المعرفة. وأعلمُ، من الآن، أني بنقلاتي البارعة كلاعب شطرنج أعمى سوف أهزمه؛ وأعلم، من اللحظة، أن المحامي بلمندو ـ لقد آن أوان التسمية ـ سيقترفُ، كمستهلّ لجنايته الوشيكة، هفوةَ أن يوصد بالمفتاح ما لمْ يكن موصداً، لاقتناعه أنّه بذلك ينجز مُخططاً كاملاً لا يشكو من ثغرات: ضارٍ، واضحٍ، بسيط؛ وإنّما يَعتوره خَلَلٌ بسيط، وهو أنه ليسَ مخطَّطه بل مخططي أنا. أنا من يسبغه عليه، ويفرضه عليه، ويقدمه له على طبق من فضة. كما أنني أنا، اليوم، من يكشفه...

باختصار، إليكم وصف ما جرى كما أراه: يطّلع أبولونيوس بلمندو، بعد استخدامه بخار الماء، على مضمون أوراقي، فيكتشف ثلاثة أمور: أنني مريض وراغب في الموت؛ وأني آمل أن أحقق رغبتي في الموت من خلال صهري أو زوجتي وأكون قد عرضتهما في نفسِ الوقت للقصاص الذي يفرضه القانون؛ وأن

الوثيقة التي عُهد بها إليه حيث تكشف هوية المسؤولين عن هذه الوفاة تُمثِّل في وعي أي قاتل محتمل نوعاً من الجائزةِ التي تمنح بلا مقابل.

بإمكاني أن أقرأ أفكاره وأن أرى أفعاله كأنني أرى في مرآة: إنّه يسخر مني لأني نصبتُ له مثل هذا الفخّ الخيالي؛ فهو يرى أنَّ لا زوجتي ولا غيغو قادران على ارتكاب مثل هذه الفظاعة بسبب من البلادة المركوزة في طباعهما وبسبب لا مبالاتهما؛ فتروق له، لبعض الوقت، فكرة أن يدع للطبيعة أن تكمل صنيعها وقد أصبح الآن يعلم بأنني مصاب بمرض عضال؛ غير أن ما يؤرِّقه هو احتمال طلاقي من سيبريين، في الوقت المناسب، لأنَّها مذنبة(ولديَّ البراهين اللازمة، وهو يعلم ذلك) فلا تحظى إلا بنفقة متواضعة بدل الثروةِ المرجوّة... فيقرِّر عندئذ أن يتولّى الأمر بيديه واثقاً من أنَّ رسالة الاتهام التي بحوزته ستلقي بالمسؤولية على عاتق غيغو. وأمله من كلِّ ذلك، نظراً للصلة التي تربطه بسيبريين، أن يستولي على ممتلكاتي لكي يتخلَّص من ديونه أولاً ومن منافس مزعج يودعه السجن. أمَّا غايته الأخيرة، بعد تحرره من ارتباطه الزوجي، وزواجه، مرَّة ثانية، من الأرملة الطروب، هو أن يصبح المالك الوحيد والمهيمن على الأعمال...

لم يستطع بلمندو، إثر سماعه هذا الكلام الجارح، أن يتمالك نفسه فَنَهَضَ غاضباً دافعاً كرسيّه إلى الخلف. ثمَّ لبث لهنيهات حائراً، متردداً؛ كان آموس الذي يتلو النصّ قبالته، فكان عليه أن يدور لمسافةٍ طويلة حول الطاولة لكي ينتزع أوراق

https://telegram.me/maktabatbaghdad

الإتهام من بين يديه، فاختار طريقاً مختصراً وتسلّق حتى أصبح فوق الطاولة وحاول بلوغ غايته زحفاً. غير أنّه لم يفلح في ذلك إذ أقعدته آلام المفاصل المزمنة عن مسعاه وسمّرته انبطاحاً في مكانه وهو يبرطمُ بعبارات غامضة. مشهد مؤلم ومضحك. وكان على زوجته وابنه أن يهرعا لإعانته على الوقوف، والعودة إلى كرسيه حيث جَلَس مطرقاً متربّاً دافناً وجهه بين راحتيه. وإذ ذاك عاود سودو، الذي يضع نفسه خارج أي تأثير وتأثر، تلاوة النصّ:

... إلى جانب هذه الاخيرة. ذلك كان ظنّه أو على الأقلّ، أظنّ أنّ ذلك كان ظنّه. فلو كانت الأحداث جرت على نحوٍ مغاير، أي إذا كنتم قد اطلعتم على المغلّف الأوّل كما جهّزته بنفسي، فهذا يعني أنني فشلتُ، ولكان الفشل هو ما أستحقّه.

أما إذا رأيتموه مختوماً بأناقة بالشمع الأحمر (على غرار ما ستجدونه في درج مكتب بلمندو...)، فستحصلون على الدليل القاطع على ارتكاب المخالفة. ومَن يرتكب مثل هذه المخالفة إن لم يكن مَنْ عُهِدَ بالظرفِ إليه؟ وما دافعه إلى ذلك إن لم يكن حرصه على الإيهامِ بأنه لا يعرف شيئاً؟ وأي غاية يصبو إليها، مستظلاً بهذا القدر من الغموض، إن لم يكن تنصيبه لنَفْسه منفذاً للجريمة بالنيابة؟.

اعتقلوه إذاً، وقيدوا يديه بالأصفاد وشدّوا القيد عليها حتى يتألم.

الآن وقد بلغنا ما بَلَغناه من السياق، لعلكّم تتساءلون عمّا

يدفعني إلى مثلِ هذه التصرّفات، وعن المؤدّى الفعلي لمثل هذا الجنون الأريب؟ وكنتُ لأودّ فعلاً أن أبقي على ظلالِ الشكِّ، غير أن صفتي كناشر وكقارئ مجرّب للروايات البوليسية تفرض عليَّ ألاّ أخلَّ بواجبي. سأفسِّر لكم إذاً، آملاً فيما أفعل، أن أفسِّر لنفسي بذريعة أني أفسِّر لكم. لقد سبق أن قلت لكم إنَّ الموتَ بدا لي فكرة ممتازة شريطة أن ألقاه على يدِ عدوّ سيدفع ثمن فعلته بأن يودع السجن. والحالُ، وهذه مناسبة لأخبركم بأنَّ دور الجلاّد هذا ما كان ملائماً، في نظري، لغيغو. فغيغو يمتلك ذكاءً متوقداً لكنَّ قلبه واهن. إنه، في المحصّلة، قانطٌ لا أطيقه لكنَّه من طينتي، أدرك ذلك وأحسّ به. وهو مثلي يؤثر أن يتألم ولا يسبِّب ألماً للآخرين... لا، من المؤكّد أنه ليس العدوّ الذي يتراءى لي حين أفكر باختيار كبشٍ للمحرقة. بل على الضدِّ من ذلك، أفكِّر، عندئذٍ، بتافه مثل أبولونيوس بلمندو فهو الوحيد من بين عشّاق زوجتي، زوجتي الآدميّة، العابرين والمسالمين، الذي تركَ أثراً في دَمِها الملتهب وفي قلبها؛ وهو الوحيد الذي جعلني أشعر بالغيرة الحاقدة، بالغيرة القاتلة. أجل، الغيرة ـ ولكم، إن شئتم، أن تبتسموا ساخرين ـ وإن بذلتُ ما بوسعي لأخفي حقيقة مشاعري، لأني، في الحقيقة، أحبّ زوجتي ولطالما أحببتها. أنا ميدار العظيم، أنا المخدوع العظيم، مذ أصبحتُ حفنةَ رماد وأنا أصرخُ وأصرخ، آهِ سيبريين: أحبُّك! وأودّ، وأنتِ تصغين لما أقول، أن تتذكّري لحظاتٍ فيما مضى احببتني، أنتِ أيضاً، فيها، خلال أويقات السعادة التي عشناها معاً: تلك الليلة في كابو موليني حيث سبحنا عاريين وحيث بدا القمر ناثراً على جسدك زيتاً من اللآلئ المذوَّبة... وذلك الصباح الذي طلع علينا في الفندق(أكان ذلك في زوريخ أم في جنيف؟)، منهوكين على سرير فيما أشعة الشمس الأولى تجتاح شعرك فتطلبين أن أغمض عينيك بشفتّي..

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بحقٍّ الشيطان إني ما زلتُ، إلى الآن، أنال من رعشتها! أما أنت يا أبولونيوس فليزهق روحك الشيطان، لأنَّك سرقتها مني. لقد دلَّتكَ يدي على الطريقة التي تودي بحياتي، فليكن! لكنَّ يدي أيضاً ستدلك على طريق حتفك، الآن وإلى الأبد.

الموقّع أدناه المرحوم

ميدار آكيلا

ملاحظة: ولكم الآن أن تتمتعوا بقرنكم الحادي والعشرين!

https://telegram.me/maktabatbaghdad

VIII

عانس تقضي الليلَ ساهرةً

سادَ هَرجٌ وصراخ. فباستثناء بلمندو الذي كان قد استنفد صفوة قواه في مأثرته السابقة، راح الآخرون يتصايحون احتجاجاً دون أن يفهم أحدٌ على أحد، حتّى بدا أنّنا في الرواق الأعلى لمسرحِ «بارم» عندما يُطلق الجهير الأوّل نوطة غاقٍ غاق. أمّا أنا فلم تكن المفاجأة هي التي اعتملت في عمقِ أعماقي حيالَ هذه الحقيقة الثانية والمرجّح أن تكون الحاسمة والنهائية، لا بل هي نوع من الضغينة الشخصية ومن خيبة الأمل حيال الفقيد الذي استبدلت صورته المحبَّبة في ذهني، خلال الساعات المنصرمة الأخيرة، بصورة مُحرّكِ العرائس الخبيث الذي يميلُ إلى خداعِ الجميع، ومن بينهم أنا على نحوٍ خاص. وسواء كان صادقاً أم كاذباً، فإنَّ هذا الهذيان المتّصل قد أصابني بشيءٍ من التوعُّك: وتراءى لي، مرّة أخرى، أنني دمية يحرّك خيوطها كما يشاء. . .

«مهرّج!» قلتُ في سرّي كأني أوبّخُه. «مهرّجي العزيز! قلتُ مصوِّبةً! إذ لَمَعتْ في رأسي عبارته: «بقرنكم»، التي ختم بها رسالته. أيُّ تخلٍّ ساخر، أيُّ براعةٍ في حفظِ المسافةِ بينه

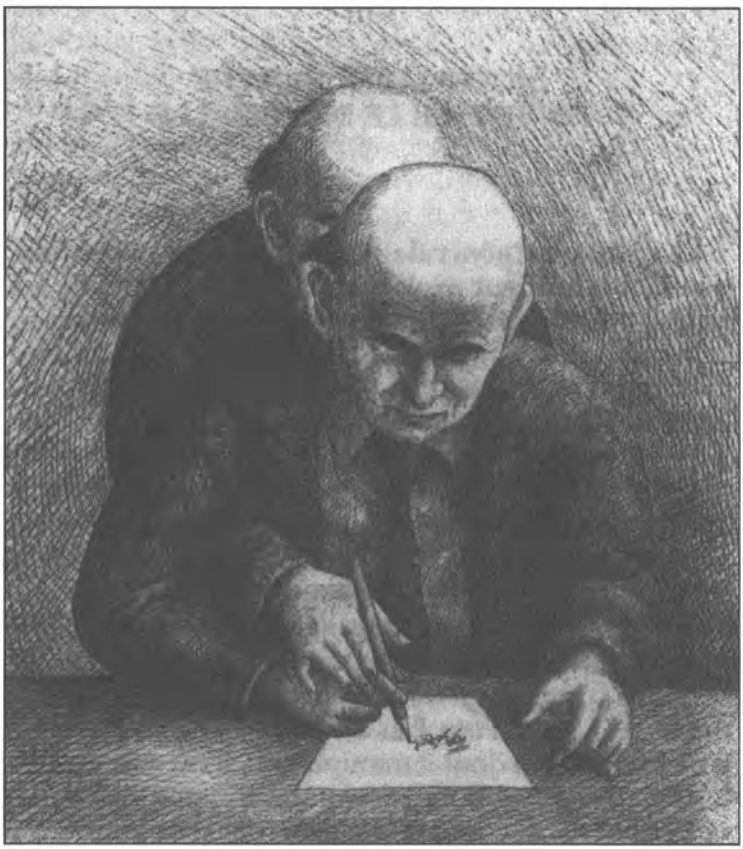

وسواء كان صادقاً أم كاذباً، فإنَّ هذا الهذيان المتَّصل...

https://telegram.me/maktabatbaghdad

وبين الحياة، بينه وبين الجميع! لا بدَّ أنه كان يشعر بأنَّ الموت يقتفي أثره، قلتُ على سبيلِ الخلاصة بعد أن فكَّرتُ ملياً بمغزى ضمير الملكيّة هذا... وفي الأثناء رحتُ أقلِّبُ أنظاري في الأنحاءِ بحثاً عن كورّو.

كان واقفاً، واعتقد أني ذكرت ذلك فيما سبق، قبالتي بحيث أني كنتُ أوّل من لمح في عينيه ذلك البريق المترجِّح أشبه بحلقتين ناريّتين تُحدثهما مفرقعات الأعياد الوطنية. وحسبتُ أني لمحتُ على شفتيه طيف ضحكة متواريةٍ خلف قناعٍ من حجر. لقد اضطرّ لتهدئة المتحلقين من حوله إلى ضربِ الطاولة بقبضة يده بعد أن شمَّر عن ساعديه لضيقه من كمّيه الطويلين، ثمَّ راح يفكِّر بصوتٍ مسموع كأنه لا يخاطب أحداً إلاّ نفسه.

«إذاً هذه ليست وصية، كما قد يخشى البعض، بل هي اتهامٌ ثانٍ. وينبغي القول إنّ هذه الجثة الناطقة التي تتسلَّل إلى مجريات التحقيق لتعيدها تكراراً إلى نقطة الصفر، كما في لعبة البحث عن الكنز المضجرة، قد أصبحت مزعجة في نظري كما في نظركم. ومع ذلك أقول إني هنا لأكتشف الحقيقة، إذا كان ثمة حقيقة، ولا يسعني، بأية حال، أن أصرف النظر عن السياق المنطقي لأقوالِ هذه الجثة. خصوصاً أننا قد نعثر خلفَ هذا السيل المتدفقِ من الكلام، على مَنْطِقٍ شافٍ، ويتضح لنا أنَّ كلاً من هذه المماحكات المطوّلة يفضي إلى اتهامٍ مبرَّر. لنأخذ الوثيقة الأولى... ففيها يُقْسِم أنَّه سلَّمها لبلمندو فيّ غلافٍ هدّية لا ميزة فيه. أما نحن، وعلى الضدِّ مما يزعم، فقد عاينا ما عانيناه لفتحها وكدنا أن نلجأ إلى قطّاعةٍ حرارية. الخلاصة: هناك من

فتحها قبلنا ثمَّ أغلقها، لا بل سكَّرها، بهاجسِ الاتقان الأمر الذي أدّى إلى فضحه».

ثمَّ توقَّف فجأة؛ أشعل سيكارة ضارباً عرضَ الحائط بتنبيهاته السابقة. وراح يدخِّنها صامتاً. لَبث مستغرقاً في أفكاره فلم ينتبه إلى الرمادِ الذي تراكم في عمودٍ رفيعٍ وهشٍّ تحت أنفه والذي رُحتُ أحدِّق فيه بثبات إلى أن هزَّته رَعدة خفيفة فوقع منتثراً على بنطاله. عندئذ تنبَّه لما حصل، وربّما أغضبه الأمر قليلاً، لكنّه استدار بغتةً نحو بلمندو وسأله: «ما رأيك بهذه الرزمة يا استاذ؟ ما رأيك؟.

ـ صحيح، قال أبولونيوس بصوتٍ خفيض بعد أن تمالك نفسه، صحيح أنني فتحت الرزمة ثمَّ أغلقتها. ولكن مع اعترافي بارتكاب هذه الجنحة، أقول إنني لم أرتكب الجناية.

ـ أحقاً تعتقد ذلك؟» أجابه غيغو الذي انتقل، بعد أن برّأته الشهادة الجديدة، من الخوف إلى الانتعاش، ومن الانتعاش إلى حالته الطبيعية الكئيبة. «أليس جناية أن تطلع قبل الآخرين على المكيدة التي دبّرت للإيقاع بي دون أن تفكّر حتى في تحذيري ممّا دبِّر لي، أليست هذه جناية؟».

بدا كورّو مُقَطِّباً وحدَج محادثه بنظرة صارمة: «لقد خسرتَ يا استاذ لقد خسرت. أن تفتح المغلَّف بدافع الفضول المنزَّه أمرٌ لا يجرِّمك. ولكنَّ المأساة تكمن في أنَّك كتمت ما اطلعت عليه من نوايا إجرامية. لا بل أكثر من ذلك: فإن سعيك لأن يكون الظرف المفتوح مطابقاً لشهادة الفقيد التي تليت بعد وفاته، قد أدّى إلى تثبيت التهم التي تتضمنها.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ «هذا إذا لم يكن الدافع إلى ذلك رغبة مضمرة بإيذاء الآخرين!» قال غيغو.

كورّو: «باختصار، هناك أمرٌ من اثنين لا ثالث لهما: إمّا أن تكون تنحّيت جانباً بانتظار أن يرتكب غيغو فعلته؛ وإما أن تكون بادرت، مدفوعاً بقلّةِ صبرك، إلى التصرّف بمفردك، لاقتناعك بأنَّ آخرين سيدفعون الثمن. . .وفي كلتا الحالين يا أستاذ لو كنتُ أنتَ لما أحسستُ بأن المجريات في صالحي».

لا بدَّ أنّها لازمة الخلاصة في كل تحقيق يُجريه. والأحرى ألاّ نعيرها انتباهاً: غير أن أبولونيوس لم يفهم العبارة على مجازها الخفيف فتهالك على كرسيّه مِثل إطارٍ فُرِّغ للتوِّ من هوائه.

لم يجرؤ أحدٌ على الإدلاءِ بتعليق: فالرجلُ مثيرٌ للشفقة، ومجبرٌ على الأختيار بين دورين أحلاهما مرٌّ، فإمّا هو الشريك المتواطئ وإمّا الجاني المعلن، وكلا الدورين أكْبَرُ من طبيعة بائسة كطبيعته. لذا لم نَرَ فيه سوى ذلك الكائن القادر على المخالفات الهيِّنة وعلى الدناءات غير المؤذية. . .

لا تعليق، إذاً. ومع ذلك خُرِقَ الصمتُ الواجمُ بصوتٍ علا فجأةً واتضح أنه صوت الدون نيستيكو الذي يحفظ الكتاب المقدَّس غيباً ويحلو له أن يقتبس منه في أقواله مقاطع أشبه بنفخ الكور: «وأضرب البيت الشتوي/ مع البيت الصيفيّ/ وتخربُ بيوتُ العاج/ وتزولُ البيوت الفاخرةُ/ يقول الرب:».

أهي مجرَّد مصادفة أن أكتشف، ولكنْ بعد ذلك بعدة أشهر، خلال تصفّحي للكتاب المقدَّس، أنَّ هذه العبارات هي

مقطع من سفر أحد الأنبياء الذين لا يؤتى على ذكرهم إلا فيما ندر، واتُّفِق أنّه يدعى عاموس(*).

باغتتنا ليبتا بصرخة تهليل. لقد سمعت من الراديو المحمول الذي لا يفارقها ليل نهار أنَّ الاتصال بين المناطق سوف يستأنف على جناحِ السرعة، وخصوصاً الـ «مالكونتونت» التي ستتلقى أشكالاً مختلفة من المعونة صباح الغدِ في أبعد تقدير. فاغتبط الجميع لهذا النبأ وغادروا المكان ولم يبق سوى كورّو وأنا في الجناح الذي ساده الصمتُ فجأة. خرجنا سوياً في نزهةٍ مسائية فيما بدا أن الآخرين انكفأوا إلى مساكنهم لتناول طعام العشاء.

بإيقاع متزامنٍ سارت بنا خطانا نحو الشاطئ. بسط ذراعه حول كتفي وراح يحدِّثني عن نفسه فبادلته بالمثل إذ ألمّت بي نوبةٌ من المَرَح الأسيان. واحسستُ فجأة بالحاجة لأن استسلم للكلام، لأن أفضفض، وأروي سيرة حياتي، كلَّ حياتي... كيفَ طرأت هذه المأساة اللاعقلانية ونَقضتْ عليَّ هُدنةً من صفاءِ السريرة؛ وكم يعتصِرُ قلبي ألماً على صورة ذلك الناشر الممدَّد هناك في صالة الألعاب، صورة ذلك الحضور الساخر والموحش على غطاء الطاولةِ الأخضر، ولا أحد ليسهر عليه وبجواره.

بعد نقله إلى المكان الذي سجي فيه ذهبت لأراه؛ رفعتُ طرف الغطاء عن وجهه راجيةً أن أقرأ على شفتيه عبارةً دونما

(*) سفر عاموس 3: 15؛ للعبارات التي اقتبسها دون نيستيكو؛ أمّا عاموس فهو إيّاه آموس؛ لم نصوِّب اللفظ في السياق لكي لا نضطر إلى تصويب لفظي للأسماء كافة، وبعضها غريب الوقع.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

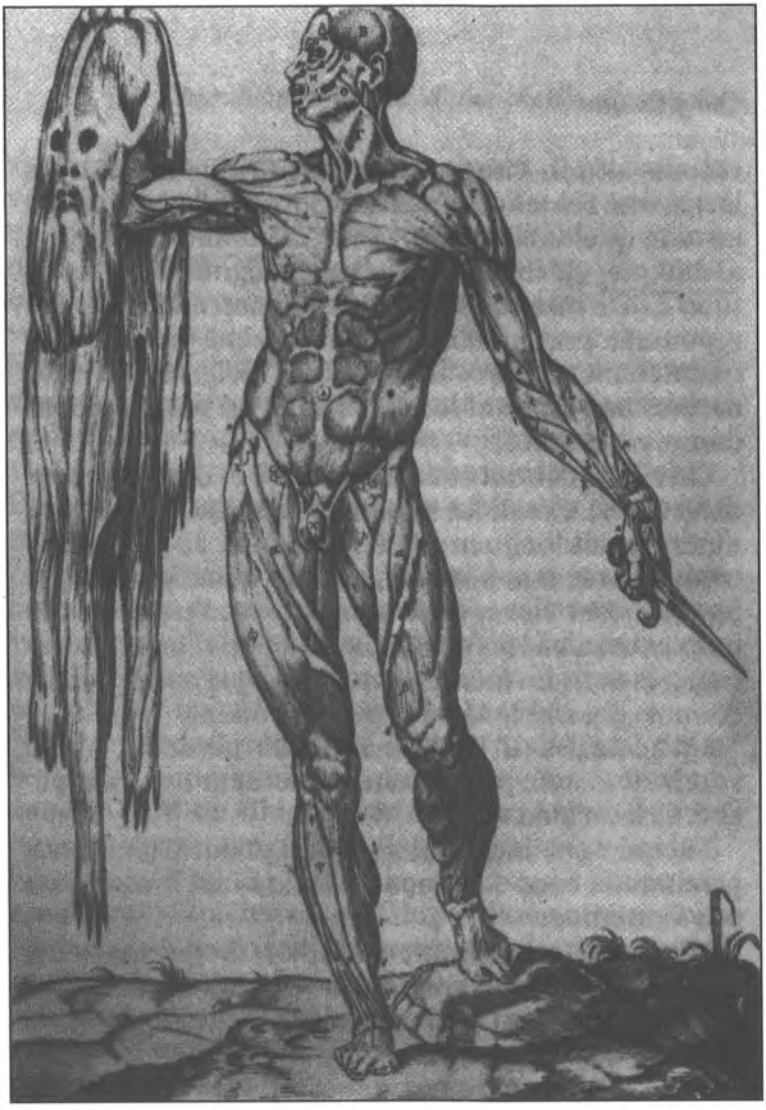

جثة رماديّة، فاقدة الحياة...

لَبْس. حدَّقتُ بوجهه هنيهات، فبدا في عينيَّ لوحةً مؤثرة: جثة رماديّة، فاقدة الحياة، أفرغها النزيف مِثْلَ بقعة لون على ملونة رسام... سرعان ما أبعدتني، منفِّرة، رائحة التحلُّل المبكر التي ما زلت أحاول تبديدها من منخري بتنشق هواء البحر المالح وباسترسالي في الحديث عن نفسي.

كان كورّو يصغي إليَّ بوجوم وحنانٍ مُتفهِّمين؛ كانت تلك هي المرة الأولى التي أحادث فيها رجلاً لوقتٍ غير قصير. وشاركته، مثل زوجة، همَّ هذه الجريمة التي بدت في عينيَّ كطفل ينبغي أن نربّيه سوياً، وصلة الدم التي تحثنا على حلّ لغزها، فقد جمعنا ميثاق واحد كأننا اقترفناها معاً بأيدينا.

«أتسمحين لي أن أفكِّر بصوت مسموع؟ قال كورّو رافعاً الكلفة بيننا دون مقدِّمات. فمن شأن ذلك أن يشعرني بالارتياح».

وافقتُ، بالطبع لكنَّه مكث صامتاً لبعض الوقت. فبادرتُ، على العكسِ مما هو متوقّع، إلى الكلام:.

«لقد نشأ كلُّ هذا، على ما يبدو، من تشخيص مرضٍ عضال لذا فإنَّ أوَّل ما ينبغي إيضاحه هو أن نعرف إذا كان هذا الورمُ موجوداً فعلاً أم أنه محض اختلاق.

ـ ما رأيكِ أنتِ؟.

ـ بحسب ما رأيت يبدو الأمر صحيحاً. إنَّ ذاكرتي المدرَّجة كسلَّم تعينني الآن على القول بأنني رأيته مرتين على الأقل، مترنِّحاً كأنَّه أصيب بدوار مفاجئ فيضطر إلى التشبث بالكرسي لكي لا يقع أرضاً. وكان يتحدَّث عن دوار وعن غشاوةٍ أمام عينيه. لستُ ضليعة في الطبِّ ولكنّي شاهدتُ فيلماً ذات

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يوم، اكتشفت فيه بيتي ديفيس،إثر عوارض مماثلة، أنها مصابة بمرضٍ في رأسها... ثمَّ أني لمحت في مفكرته الخاصة إشارات إلى مواعيد مع أطبّاء واخصّائيين... هذا ناهيك عن التلميحات العديدة، والتنبوءات والاستعارات التي غالباً ما كان يضمّنها كلاماً عن نهايته الوشيكة... وخاتم الزواج الذي بدا، في الفترة الأخيرة، أكبر من مقاس إصبعه المهزولة...

ـ حسناً، لنفترض أنّ إصابته بالمرض أمر مؤكد. وهذا بأية حال، ما سيبيّنه التشريح لاحقاً؛ ولكنْ ما الذي يمكن استخلاصه من أمرٍ كهذا؟.

ـ هذا يعني أنَّ خيار موته صحيح، ما يُفسِّر أيضاً خططه المتتابعة لجعلِ أحدٍ ما مسؤولاً عنه، فيستدرج بمعيّته إلى الخرابِ عدوّاً ما تماشياً مع ميله العبثي للثأر والاقتصاص. هذه نقطة أولى. أما النقطة...

ـ اما النقطة الثانية ـ كأن كورّو خطف الكلمة من فمي ـ فتتعلّق بالجرابِ الذي عثرنا عليه في سيَّارة غيغو الفورد ويحتوي على حفنة تراب ومدية للثلج أشبه بمبضع. لا بدَّ أن القاتل وضعه هناك؟ ولكنْ مَن تراه يكون؟ أهو غيغو أم أبولونيوس؟ أبولونيوس أم غيغو؟ بالنسبة لي هما وجهان لعملةٍ واحدة، نصفان لشخص واحد. ولا أعتقد أنَّ الاتهام الثاني قد بدّد الشكوك. وأكره بشدَّة أن استسلم، كلَّ مرة، لميتٍ يقودني في دوّامات رقصته...

ـ صحيح، ولكنّ السيارة هي سيارة غيغو...

ـ وما نَفْعُ هذا الدليل وعمَّا يبرهن؟ لِمَ لا نشتبه بشخصٍ ما يختلق الأدلّة المضلّلة ويزرعها في مكان يمتلكه؟ ألا يُعقل هذا؟.

ـ بلى، هذا ممكن، ممكن، قلتُ. لكي يوهم الآخرين بأنّ يداً غريبة تعمّدت دسّ هذه الأدلة لإدانته. فهذه ليست المرّة الأولى التي نرى فيها مذنباً يفبرك الأدلّة القاطعة ضدّه لغاية وحيدة وهي أن تبدو مزيّفة فتكون الدليل على براءته.

ـ إنّك تبالغين في قراءة الروايات، قال وإن بدا مهتمّاً بالتعليل الذي سمعه منّي.

ـ لا بل وأكتب الروايات أيضاً، إذا كان الأمر يعنيك»، قلتُ وقد احمّرت وجنتاي. وكنتُ أقصد مخطوطة روايتي الملطخة بالدماء ولا أحد يعلم سوى الله أين أصبحت، ربمّا في ملفّ الأدلة الاتهامية، وربّما في سلّة مهملات.

رمقني قائلاً: «هذا لصالحك. لقد حظيتِ بموضوعٍ واقعي وساخن. وبامكانك أن تضعي له عنواناً عريضاً: «التهريج» فما جرى أشبه بجريمة سيرك، مصطنعة، مبكية مضحكة، مبكية مؤثرة... زاخرة بالثغرات والاستغمايات، والوقائع المدبَّرة، والحجارة التي تسقط على رأس راميها... حالة تتطلّب لفهمها، عقلاً مُخاتلاً كعقل المجرم أو، لكي لا نذهب بعيداً، كعقلِ الضحيّة نفسه.

ـ أو كعقلك، مستر هولمز، قلتُ على سبيل الدعابة. البركة فيك أنت أيضاً، وأراهن أنّك قادر على حلّ اللغز.

ـ «with a little help from you»(*)، يا آنسة واتسون» قال وهو يشدُّ على ذراعي.

(*) «مع القليل من معونتك» (بالانكليزية في الأصل).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

لم أصدّق أذنيَّ، شرطي يقتبس من أغنيات البيتلز!...

بتنا في ساعةٍ متأخّرة غير أنَّ أحداً منّا لم يرغب في الذهابِ إلى النوم. كان الجوّ مفعماً بالطراوة إثر العاصفةِ التي هبّت. عند الأفق البحري حيث تتماوج الأنوارُ مبتعدةً، ارتسمت، تحتَ ضوءِ القمر، سلسلة من الجبال والوهادِ المكسوة بالثلج؛ منظر ناصع تُظلّله أخيلة رمادية كما تُلَطِّخُ بُقَعُ الوحلِ زينة الحفلات الساهرة. كنتُ أشعرُ ـ لِمَ الكتمان؟ ـ وخلافاً لما اعتدته، بأني قد صالحتُ نفسي راضيةً مرضيّة. وإذ اصطفيتُ العتم ملاذاً، أظهرتُ للعالمِ وجهاً لي غير مرئي، وبي لَهَفٌ لأن أصدِّقه، لَهَفٌ لأراه مشرقاً. ثمة رجل يقف بجانبي؛ كنّا زوجين على غرار أزواج لا يُحصى عددهم على شطآن لا تحصى، نرى الحلمَ نفسه، حلمَ ليلة صيف. ولن يضيرنا في شيء أن تدور أحاديثنا حول لغز غامض، وأن تولد قصة حبٍّ ناشئة، أو أي شيء من هذا القبيل، في إطاره... والحقّ إنه مزيج لم يسبق له مثيل، على ما أعلم. كما لم يسبق مثيلٌ لواقعةِ أنني أسلمتُ حضري، ورجائي المتسكّع بالسعادة، لسَيْرِ تحقيق ملطَّخٍ بالدماء. ثمة خيط بات يربطني بهذا الرجلِ الحزين القصير القامة. خيط هو سعينا المشترك في النفق المعتم لتلك الميتة. «سأعثر على الحلّ» قلتُ في سرّي بتصميم. ذلك أن خبرة الشرطي لا تساوي توقّد الذهنِ الذي تتميَّز به فتاة عانس تحبُّ أو تظنُّ أنّها أحبَّت...

عندها باشر دماغي عمله على أحسن ما يكون، لقد أردت أن انتزع اعجابه، وإذا كنتُ لا أملك سلاح المفاتن، فإنَّ الآلة

الصغيرة التي تعمل خلف جبيني المزيّتة التروس، المتنبّهة، الحصيفة والمتهكمّة، قادرة على الاضطلاع بهذا العمل وأكثر. «كوميسير كورّو، بُحتُ له في سرّي، أنتَ لي!»

جلستُ مسترخيةً وقد أسندتُ ظهري إلى كثيب رمل ومددت ساقيّ وأشعلتُ سيكارة. كان الجوار أليفاً، يرتاده الناسُ عادةً كما تدلُّ بقايا مخيّم مُرتَجَل من بينها وتّارة وبقية إصبع حُمْرة متسخ. «ليتيا؟» فكّرتُ بصوتٍ مسموع، ولكنّ كورّو لم يجب، فقد أغمض عينيه من التعب وربّما غلبه النوم. عندئذ رحتُ أحادثُ نفسي مسرّحةً أنظاري في مدى البحر: «نَمْ، نَمْ يا شرلوك هولمز العُطَل، فالآنسة واتسون ستفكّر نيابة عنك». كنتُ أتعمّد استفزازه بما قلتُ لكني لم أحظَ منه بجوابٍ سوى نخيره الخافت قائلاً: With a little help للمرّة الثانية، ولكنّه بصفير خافت استبدَل النَغَم مستعينا بعبارة(*) Guarda che luna من أغنية محليّة تلائمُ أوتاره الصوتية...

أغمضت عينيّ بدوري. وأدركتُ أنّ هذا الطباق النَغمي الشكّاك هو أفضل مُصاحبة حيال العَتْم الذي يكتنف جلستنا. غير أني لم أعترف بالهزيمة: «أصْفُر ما شئت، ولكنّك، في آخر المطاف، ستصفر إعجاباً... أمّا الآن فاتبعني، إذا استطعت، في سعيي لترتيب هذه الفوضى، وفيما أصنّفُ الأدراج في رأسي، شكوك من جهة، ويقينيات من الجهة الأخرى... سأرسم أمام عينيك على لوحٍ متخيّل عدداً لا يحصى من علامات الاستفهام...

(*) أنظري أيّ قمر هذا (بالإيطالية)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ والأجوبة؟ سألني.

ـ الأجوبة ستأتي فيما بعد. ولكنْ عليك أن تتبعني جيّداً.

ـ حاضر، قال برقّة مفاجئة. حاضر، يا سيدتي. إني جالس في الصفّ الأوّل، ألا ترين؟» ورفع يده. أقنعتُ نفسي بأن امتثاله ليس من قبيل الدعابة، ذلك أن طبعي، ولأعترف، لا يخلو من بعض الادّعاء. وها أنذا اسْتَرْسلُ في الكلام لا ألوي على شيء: «قلت علامات استفهام، ولكن الأحرى أن أقول لكمات في العين. لنأخذ هذه الحكاية عن الشمس التي تذيب الثلج. أيمكن حقاً حساب تأثيرها بمثل هذه الدقّة؟ وهل يمكن حساب مسار سقوط جسم ما لنكون على ثقة من أنه سيُصيب الهَدَف المتعيَّن؟ غاليليو كان قادراً على مثل هذه الأمور، وربّما بطلٌ في لعبة الكرات. ولكن غيغو أو أبولونيوس؟.

ـ ربّما بفعل المراس والتجربة، قال كورّو مفترضاً، فانبثق شكٌ من أعماقي طافياً...

ـ ولكنْ، أردفت قائلة، هذا الجناح المستدير المقبّب هو مرسى بحري حقّ، وليس من السهلِ أن يُسعى فيه بعيداً عن الأنظار.

ـ لقد حاولت أن أقوم على نحوٍ مماثل بالخطوات اللازمة، أجاب كورّو متبرّماً وكأنه لا رغبة له في متابعة الحديث؛ وتبيّن لي أن زحزحة التمثال ثمَّ إعادته إلى مكانه بطريقة مدبّرة لا تستغرق أكثر من دقيقتين، أمر لا يُصدَّق، لكنّه صحيح».

كتلةٌ ذات بياض شاحب انبثقت من مياه البحر، لعلّها

ضباب أو أي شيء آخر، لا أدري، وراحت تطفو على صفحة المياه جاريةً حتى بَلَغتْ الشاطئ وانفلشت عند أقدامنا التي انغرزت، في الأسفلِ أمامنا، في أربعِ حُفَر رملية. غشاوة أخرى من السقام أحبطتني فتلاشت الاسئلة العديدة في ذهني مثل غمغمات أحلامٍ كامنة. مَنْ كان يعلم، إلى جانب متَّهمَينا المعتادين، بقضيّة الموت البارد؟ مَنْ خبّأ في السيارة الجراب المشبوه؟ ولماذا؟ ماذا كان يفعل آكيلا في المستودع عندما فاجأته هناك كمفكِّر مستوحد؟ مَنْ تسبَّب بالحريق؟ أهو القاتل أم شخص آخر؟ ولم هذا الاستعجال الغريب في الإطلاع على مضمون المذكَّرة الثانية؟ ماذا، مَنْ، كيف، لماذا؟ اختلطت الأمور كلّها في ذهني ثمّ فجأة صرتُ غير مبالية. . .

وقد أقسمُ، من جهة أخرى، أنّه هو أيضاً، في تلك اللحظة بالذات، لم يكن ليبالي كثيراً بالأسئلة المطروحة حول هذا اللغز. من المؤكّد أنّه ما زال صاحياً وما زلت أسمع وتائر أنفاسه بجانبي، وأرى بين شفتيه سيكارته المشتعلة.

«أنا متحدِّر من الجنوب، قال. ولا شكَّ في أنَّكِ لاحظت ذلك من لهجتي. ولدتُ فقيراً. وقبل ولادتي كان فقرنا على أشدّه بحيث أنَّ أمي عمدت إلى تفصيل مبذل لها من بركالِ غرفة المؤن، ولكي أحصّل شهاداتي، فيما بعد، كان الأمر اكثر مشقة. . .».

طبعاً، أمسكتُ بيده ومكثنا متشابكي الأصابع لبعض الوقت.

«فقيرٌ ولكنْ عزيز الجانب، أردف قائلاً. من طينة الذين

https://telegram.me/maktabatbaghdad

يقلّعون أشواكهم بأيديهم، كما يقولون في ناحيتي. أو كما يقول الإسبان:

. Un hombre de pocas Pulgas...

ـ ماذا يعني هذا؟.

ـ رَجُلٌ يصبر على برغوتٍ أو اثنين لا أكثر.

ـ ولكنْ أنا...

ـ أنت، أنت...» أجاب مقلّداً صوتي، ثمَّ لم يلبث أن همس في أذني بنبرة عاطفية «يا برغوتي الصغير» وهو يمسِّدُ براحته شعري. حاولتُ عبثاً أن أرتجل ردَّ فعلٍ مناسباً، لكنّ حيلتي في هذا المجال قليلة، فلم أجد سوى دندنة لحن قديم إلى أن قاطعني عند منتصف luna lunera وقد أطبق شفتيه على شفتيّ...

«ألديك إستنابة قضائية؟» قلتُ محتجّة قبل أن استسلم، فالعبارة من حوار فيلم...

هكذا، ودون قَصْد أو عَمْد، ليلة 15 آب/ أغسطس 1990، وبين كثيبي رمل، وحيال صعوبات تقنيّة ذلّلناها بمشقة وبأس، فقدتُ عذريتي بين أحضان الكوميسير كورّو.

كانت الساعة قد شارفت الثالثة فجراً حين أويت إلى فراشي، ولكنّي لم أستطع النوم. لم استحسن الجراحة التي خضعتُ لها إلاّ قليلاً. مع ذلك فقد أشعرتني براحة ذهنية شبيهة

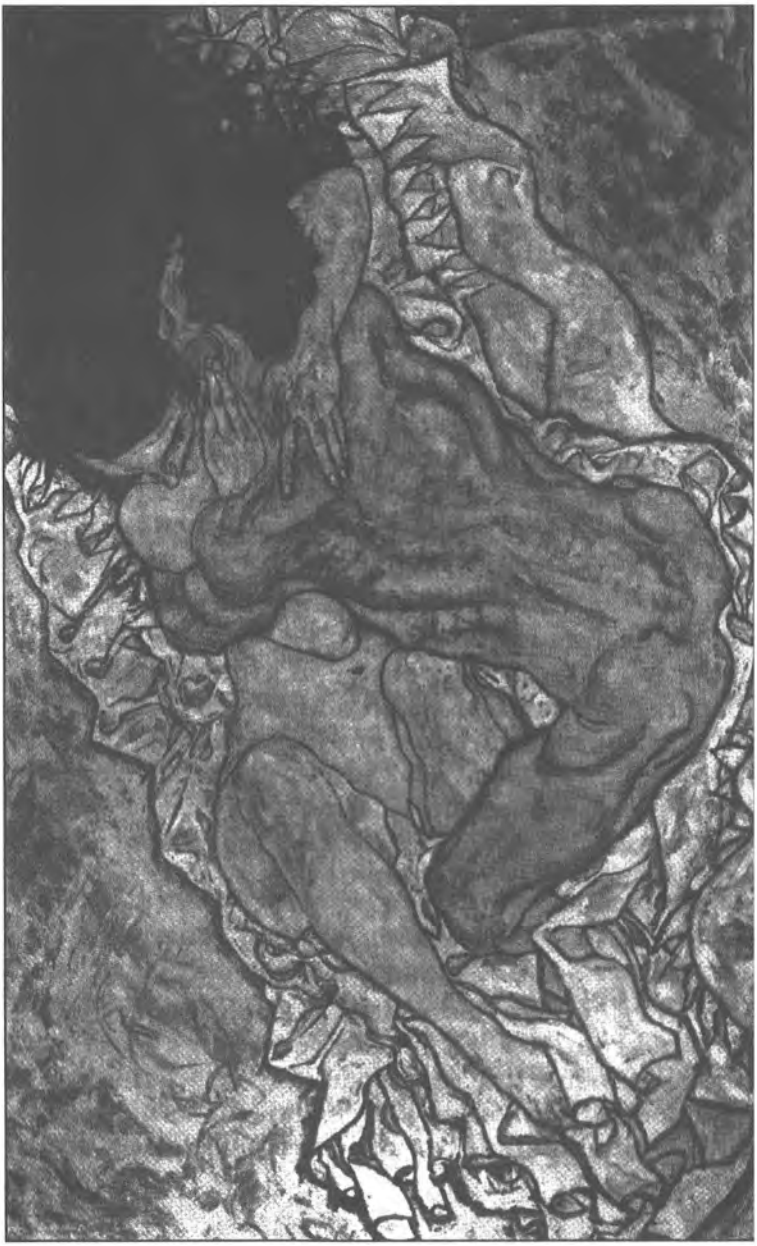

«ألديك إستنابة قضائية؟» قلتُ محتجّة قبل أن استسلم...

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بتلك الراحةِ التي نشعر بها عندما نضغط بطرفِ الإصبعين على زؤانة الجلدِ عند طرفِ الذقن. فلطالما حملتُ عذريتي القسرية مِثْلَ قيدِ قميص المجانين، وبرهاب الأماكن المغلقة. أمّا وقد زالت فأشعر بخفةٍ لا توصف، وأشعر بأنني أصبحت أكثر حكمةً؛ وبدا لي أن جنون اليوم المنصرم، بما تخلّله من دمٍ وألغاز، ما كان ليُختتم إلا بمثلِ استسلامي، طائعة، لشخصٍ غريب. حتّى الجريمة تلاشت في ذهني وخفّت وطأتها وصارت أفكاري تحوّم حولها، متقاطعةً ومتباعدةً بانسياب حركات راقصة. أخيراً عثرتْ على نسق تناغمها، بعد شطط، ووجدت كل قطعة من قطع الفسيفساء محلّها واتسقت الحكاية في مُسكةٍ متطابقات لسياقة مطلقة. لم تعد مجرّد رؤية مشوّشة تترى بإيقاعِ فواقٍ سكّير ما، بل نظرية يتطلب اثباتها البرهان، وقواعد نحو، وسلسلة من الأرقام الذهبية. «وجدتها!» قلتُ بصوتٍ مسموع وقد انتصبتُ جالسة فوق سريري.

نظرت إلى ساعة المنبّه: السابعة. أمامي ساعة أخرى أو ربّما ساعة ونصف قبل أن تفتح المكاتب أبوابها في المدينة لأجري بعض المكالمات الهاتفية في سباق محموم مع الوقت. وإلى ذلك الحين، استلقيتُ قليلاً طلباً لراحة احتاجها. كانت غفوة قصيرة الأمَد، ولكن كافية، تخلّلتها أحلام رأيتني فيها عذراء أو ملكة. هل كنتُ محقة في أني حلمتُ ما حلمتُ؟.

· سوف نرى بعد فاصلٍ قصير.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

IX

لعبة الورقات الثلاث

مستجدّات اليوم التالي جَرَتْ ناحية الشاطئ مع وصول زورقٍ طرّاد للجمارك مخترقاً عزلتنا؛ وترجّل منه وكيل للنائب العام وكاتب محكمة وطبيب شرعي وكاتب عدل وشابان من مؤسسة دفن الموتى«Requiem aeternam» التي كانت سيبريين قد اتصلت بها لتدبير اجراءات نقل الجثمان ومراسيم الدفن. فهي إذ فاجأها ألمُ الترمُّل عثرت في إحدى الخزائن على شالٍ من الحرير الأسود يلائمُ حدادها؛ وكانت لا تكفّ عن التجوال بيننا، أسيانة غاضبة، منتهزة كلّ سانحة لكي تؤكِّد، على مسامعنا، أنَّها براء من أي زنا ولا صلة لها بهذه الجريمة.

كان الطقس قد استعاد صفاءه وأعاد إلى المكان أجواءه الأشبه بمنتجع لمرضى أعصابٍ في طور النقاهة. «كم أنتِ جميلة، يا صديقتي، كم أنت جميلة! إني أشبّهك بأفراسِ عربات فرعون» كان تارك الرَّهبانية يردِّد، من المنظرة، على مسامعِ ليبتا المتكئة على ذراعه. وكنتُ قد صعدتُ بدوري إليها، بدافع الفضول، لكي يتسنى لي أن أرى وصول المعونات إلى الشاطئ،

ولم أكن الوحيدة، فقد استيقظ سكان الفيلاّت جميعهم في ساعة مبكرة وتجمهروا هناك صاخبين بجلبتهم وحضورهم. وكنتُ أوّل من تعرّف إلى الوافدين الجُدُد ومن بينهم وكيل النائب العام الذي يدعى فرانكالانزا، وهو رجلٌ في مقتبل العمر حديث العهد في مهنته، وإن كان ذرب اللسان، أو على الأقل ما لم تعقد لسانه نوبةُ تأتأة موقظة في نفسه الدفينة، خصوصاً بحضور نساء، عقدة استحياء مردّها وحمة حمراء قانية تزّين البقعة بين أسفل عنقه وخدّه والأرجح أنها ميسم ولادة.

المهمّ أنّه إذ حلَّ محلَّ كورّو في ترتيب الجلوس حول الطاولة، بدت لي سيماؤه محبّبة وأدركتُ في سرّي على الفور، أنني لن أجد، لعبوري المقبل تحت الأضواء، سمّيعاً أفضل منه: فهو يجمع في خصاله بين هيبة المأمورية وسماحة القلب وتواضعه.

جاءت مناوراته الأولى ذات طابع عملي بحت: أحاديث جانبية مقتضبة مع الكوميسير، ثمَّ جولة تعارف متبادل بينه وبين الحضور. ثمَّ أطلعنا على رغبته في جمعنا كلنا دونما استثناء في إطار جلسة مواجهة مطوَّلة، فهذا ـ كما قال ـ اسلوبه غير الرسمي للشروعِ في تحقيق مثل هذا. فبسط أمامه رسالتي الناشر اللتين لم يكفَّ عن تفحُّصهما بين الحين والآخر، كما تفحَّص لائحة «الوصول والمغادرة» التي دوَّنتها بيدي والتي أسماها «ثَبْت حجج الغياب»، بعد أن استحصل عليها، بحسب الأصول المرعيّة الإجراء، من كورّو. ولكن ما إن بدأت الاستجوابات حتّى بانت الأقاويل المتناقضة على نحو واضح في ذكريات الحضور حتّى بدا أن الناشر المرحوم قد ربح رهانه باستحقاق مضاعف. ومع

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ذلك تمَّ التوصل إلى نتيجة ما: فقد أقرّ كلٌّ من غيغو وأبولونيوس، وبرغم التشوُّش في ذكر الساعة بالضبط، أنّهما صعدا كلٌّ بدوره، إلى الجناح الدائري صباح اليوم المشؤوم وقبل سقوط اشيل من مرقاته بوقت قليل. لقد تواجدا في المكان كلٌّ بمفرده ودون أن يلتقي أحدهما الآخر. وقد فعلا ذلك، كما أردفا قائلين أمام دهشة الجميع، تلبية لدعوة من ميدار الذي كان ينتظرهما، على ما يبدو هناك.

«ومع ذلك لم يكن هناك، قال أبولونيوس.

ـ أمّا أنا، قال غيغو، فقد استغرقت المقابلة هنيهات كانت كافية لإلغاء الموعد معه وتأجيله إلى المساء. فغادرته متوجِّهاً، بعد ذلك، إلى صالة الاستجمام».

بيْد أنَّ فرانكالانزا الذي كان مستغرقاً في قراءة ملاحظاتي، قاطعه فجأةً: فهذه الأقوال لا تبدو مبنية على الوقائع، لأنّه من غير المحتمل أن يكون ميدار قد غادر «عرشه» حيث كان مستغرقاً في قراءة المخطوطة ويطمئنُّ من وقتٍ لوقت، بواسطة الهاتف، إلى حسن سير مهمّة المراقبة.

يمكن القول إنَّ تلك اللحظات بدت عصيبة في نظر غيغو؛ ولمّا دعاه قاضي التحقيق إلى التفكير ملياً في حالِ رغبته في التراجع عن إفادته، أصرَّ بحزم على روايته. ولمَّا سُئلَ، بعد ذلك، عن سيَّارة الفورد وما وُجدَ فيها، أنكر أن يكون رأى أو لمس هذا الجراب. «هلاّ أبقيت نفسك بتصرف التحقيق، قال فرانكا لانزا متأتئاً في ختام استجوابه. سنعود إلى هذا الموضوع لاحقاً.» وهمَّ بمتابعة الجولة مع آخرين حين تدخَّل كورّو

مقاطعاً. لقد بدا في عينيَّ فريداً وسط هذه المجموعة من الخائفين والغاضبين والمرتبكين؛ وحده هو الذي يمتلك رؤية واضحة للأساليب والغاية. «إنه رَجُلي» قلتُ في سرّي بخيلاء، وقد تراءى لي بعيداً عني، قادماً من العدم الذي إليه سيعود. وما أمكنني إلاّ أن أثمّن بإعجاب براعته المهنيَة التي يجيد استخدامها جامعاً ما بين الهيبة والدماثة...

خاطب قاضي التحقيق بنبرة ودودة، كأنه يخشى أن يُفهم كلامه بأنّه تجاوز لصلاحياته: «نحن متعبون، جميعاً، قال. ونحتاج بعض الراحة.» ثمَّ مُسّداً حاجبيه الكثين بإصبعين من يده اليسرى، أردف قائلاً: «وفي الأثناء، لم لا نتحادث فيما بيننا، دون محضر أو جهاز تسجيل. لتتضافر جهودنا في سعينا لأن نفهم. ربّما كان لدى أحدنا فكرة ما؛ شكّ؛ تفسير ما؛».

كان ضيوف الڤيلاّت قد اجتمعوا في الجناح، باستثناء الخدم والغرباء ومعهم مرافق آكيلا سابقاً الذي عاود الظهور فجأة بعد أن بلغه النبأ لا أدري كيف أو بواسطة من. فانتهزتُ فرصة غيابهم وعقدتُ العزم من حيث كنت جالسة، مِثْلَ تلميذ ألحّت عليه حاجة فطلب الإذن من معلّمته، ورفعت يدي باتجاه فرانكالانزا، مشيرةً إلى أنَّ لديَّ ما أُدلي به.

«تفضَّلي» قال الرجل، فتنحنحت.

تذكّرت في الفصل الأخير من كتابي «لَبْس»(المعنون: «المحصلة») فاتحة خطاب المحاسب سودانو وكان على وشكِ الاهتداء إلى حلٍّ لغز القضية، وقرّرت أن انتحلها لنفسي: «سيّداتي سادتي الأبرياء، قلت، سيّدتي أو سيدي القاتلـ(ة)...»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

رمقني الجميع بنظرات مجفلة.

«لستُ، أردفتُ قائلة، سوى موظّفة موقّتة تخشى أن تفقد وظيفتها؛ غير أني أودُّ أيضاً، ولما فيه خير الجميع، أن أشاطركم بعض الأفكار التي أمعنتُ في تمحيصها خلال الساعات المنصرمة والتي، أعتقد أنّها قد تؤدّي إلى بَذر حقيقة. وأودُّ أن أشير هنا إلى أنني استجيب بذلك لدعوةِ الكوميسير كورّو الذي أراد أن أعاونه في بدايات التحقيق بمثابة شريك تقريباً...»

شعرتُ بأن كورّو لم يستحسن هذا التلميح على الإطلاق، فعضضت على شفتيَّ استدراكاً، غير أن المنحدر الذي سلكته كان شديد الانحدار...

«لقد أقمنا جميعاً، إلى الآن، رهنَ مشيئة الميت وأدائه البهلواني. إنه هو، كما أشارت، بحق، السيّدة أوريولي وبحق ـ شكرتني ليديا أوريولي بابتسامة ارتسمت على شفتيها على هيئة قلب ـ، إنّه هو الذي قاد خطانا برسائله المتتالية المتناقضة كأنّها سهام «بارته» التي يغرزها في ظهورنا وقد ولّينا الإدبار. لا أقصد هنا أن أقول إنَّه ينبغي أن نهمل كلياً هذه الرسائل، بل أن نستغلَّ معطياتها دون أن نسمح لها بسلبِ تفكيرنا... أي باختصار، لنترك لجام الحصان في رقبته ولكن شريطة أن نربطه بالوتد...».

كنتُ أوَّل المتبسِّمين استحساناً لهذه الكناية البسيطة لكنّ القاضي، لم يتبسَّم، بل على العكس: «إلى الوقائع، أرجوك»، قال بنفاد صبر، غير أن كورّو أشار عليه من بعيد بأن يدعني أتابع، واضعاً سبَّابته على شفتيه، فبادلته ابتسامة تواطؤ وامتنان.

«كان ميدار يردّد، تابعتُ قائلة، أن خطأ بعض الروايات يكمن في أنّها تقترحُ عدداً هائلاً من المشبوهين لتهمةٍ واحدةٍ وحيدة. والواقع أن لائحة المشتبه بهم ليست قابلة للزيادة إلى ما لا نهاية، ولا تشمل إلا شخصين، أو ثلاثة في أبعد تقدير. وفي معظم الأحيان يكون الجاني هو من تحوم حوله شبهات كثيرة وليس العكس. لذا أقترح أن نلجأ إلى فحصٍ أوليّ مُجْمَل، لا يُكبِّدنا مشقّة كبيرة، ويقضي بأن ننطلق من الصفر وباعتبار دافع كلٍّ واحد منّا والفرصة العملية التي قد يكون انتهزها لارتكاب الجريمة، الأمر الذي يتيحُ لنا استبعاد معظم الحاضرين وتقليص هامشِ الحيرة...

ـ أمّا الفرصة، قال كورّو، فقد توفّرت للجميع. ففي ساعة ارتكاب الجريمة كان الجميع، تقريباً، وعلى نحوٍ ما، بجوار الدربزين، إمّا قاصدين صالة الاستجمام وإمّا عائدين منها.

ـ باستثناء الفنانين سودو ودوڤال، قلتُ طلباً للتصويب. فهما لا يتوفر لديهما لا الدافع لقتل الناشر ولا الاستعداد لارتكاب مثل هذه الفعلة، وإن بدت أعمالهما في أعين غير حصيفة زاخرة بالأدلّة على أجواءٍ إجرامية...»

وسرعان ما شعرتُ بالندم لما ألمحتُ إليه فحاولتُ أن أطمسه بالانتقالِ إلى مَثَلٍ آخر: «كما أعتقد أنه ينبغي استبعاد دون جوليان: فالمرء لا يلجأ إلى القتل خوفاً من فقدان حقوقه كمؤلف. فلو كانت تلك هي الحال، لما امكننا أن نحصي لا عدد ضحايا القتل من بين الناشرين ولا عدد المؤلفين القتلة. ولنا أن نستثني طبعاً أولئك المؤلفين المضجرين الذين يقتلون دونما أثر للدماء...»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ومهما كان من أمر هذه الدعابة الجديدة التي أطلقتها، بإمكاني القول إنّها صالحتني مع مستمعيّ. ولكن ليس مع جوليان نيستيكو. فقد بدا هذا الأخير مُنزعجاً لأنّه لم يُحسب في عداد المشتبه بهم وراح يَتْلو أقوالاً للقديس بولس:

«بذنب رجلٍ واحد وَفَدَتِ الخطيئة إلى العالم ومن الخطيئة وَفد الموت. وهكذا طاول الموتُ كلَّ البشر، لأنّهم عاشوا بالخطيئة...»

أحْسَنْتَ! ولكن لدينا مَثل على الجرائم المتعدِّدة في «جريمة قطار الشرق السريع» وكما يعلم الجميع، التكرار غير مفيد(*)... وإذ نفخت رياحٌ مؤاتية في أشرعةِ فصاحتي، أردفت قائلة: «لننتقل إلى السيِّدة غارّو: لا أثر لعداوة بينها وبين الفقيد، بل شعورٌ بالتضامن بين شخصين تعرَّضا للخيانة. وما من علامة في تركيبها النفسي قد تجعلها قادرة على تنفيذ مخطَّط بمثل هذا التعقيد. بالإضافة إلى مقدرات جسدية ضئيلة واستحالة توفّر الشروط الماديّة لارتكاب هذه الفعلة، وقد اشرتُ في ملاحظتي إلى الواقعة التالية: لقد صعدت إلى المنظرة عند العاشرة والنصف مما لا يتيح لها سوى هامشٍ ضئيل جدّاً لتنفيذ جريمة مماثلة.

ـ مهلاً، قال كورّو. إننا نتطرق هنا إلى أمور بالغة الدقّة. ذلك أننا لا نعرف كميّة الثلج اللازمة، أو درجة الحرارة الضرورية لتذويبها والوقت الذي قد يستغرق، ساعة أو ثلاث ساعات، بحيث أنَّ كلَّ من شوهد هناك قبل ثلاث ساعات أو

(*) باللاتينية في الأصل: repetita non juvant

ساعة واحدة من الجريمة التي وقعت ظُهراً قد يكون معنيّاً. . .»

انتفضت ماتيلدا وصاحت: «ساعة واحدة أم ثلاث، الأمر عندي سيّان. لقد ذهبتِ طلباً لحمَّام شمس وكنتُ شبه عارية. فأين أخبئ ما يلزم لارتكاب الجريمة؟ في أذني؟ في منخري؟.

ـ إذا كان اعتراضك يقف عند هذا الحدّ، أجاب كورّو ببرودة وهو يتفحّص ملاحظاتي المدوّنة، فقد ذكر هنا أنّك كنت تحملين حقيبة نسائية كبيرة، ومتخمة بما تحتويه. ومثل هذا النوع من الحقائب قد يتسع لأشياء كثيرة، ومن بينها الوعاء الخاص بحفظ الثلج.

ـ لنفترض أنّ ما تقوله لا يجانب الحقيقة، قلتُ راغبةً في التوصُّل إلى تسوية. ولكن، موقتاً، لندع السيّدة غارّو جانباً ولننتقل إلى ليبتا. يبدو لي أمرها واضحاً كلّ الوضوح ولأسباب بديهية. أنظروا إليها. كانت الفتاة تمصّ إبهامها بلذّة ولا تعيرُ إنتباهاً لما نقول، وبدت عيناها معلقتين بشغاف نيستيكو وشفتيه كأنها تصغي، في تعبُّدِها له، إلى خطابه الصامت.

«مَنْ يبقى؟ تابعت قائلة. الفتى أوريولي؟ هيّا، لنكن جدّيين قليلاً. مَنْ؟ أمّه؟ إنني أقرّ طوعاً بأن هذه الأخيرة قد تكون تخيّلت هذه الجريمة بحذافيرها. ولكن أن تعمد إلى تنفيذها، فهذا أمر آخر. ومع ذلك لندع أمرها معلّقاً؛ وأمري أنا أيضاً، وإن كنتُ، فيما يخصّني، لا أجِدُ مكسباً لي في موتِ ميدار، لا بل أحسب أن المتاعب التي قد أواجهها من جرّاء ذلك أكبر بكثير. ويبقى مع ذلك، وأقصدُ من الناحية النظرية، أنّ لا شيء يحول دون الاشتباه، ومهما بدا الأمر مستهجناً في نظر الجميع، بأنني ربّما

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كنت عشيقته فتخلّى عني واحسستُ برغبةٍ في الثأر منه؛ وأنني دوّنت لائحة حجج الغياب لكي أضمّنها حجة غيابي، متظاهرةً بأنني لازمت غرفتي لكي أراقب ما يدور من حولي، في حين أنني ذهبت في الحقيقة إلى مسرح الجريمة لأُدبِّر تفاصيلها القاتلة. . .

ـ إنه جنون عظمة مطبق يا آنسة، كأنكم تختلقون كل هذا الأمر لمجرّد التفاخر.» قاطعني كورّو قائلاً بنبرة جفاء. مُداريةً خجلي، تابعتُ سياقَ تحليلي غير أني لم أنزعج لهذه الـ «كأنكم» الرسمية المثقلة بالتكلُّف والتي لم أرَ أنّها قد تعني التباعد وحفظ المسافة بمقدار ما قد تؤكّد التواطؤ العاطفي غير المعلن. . .

«في الخلاصة أقول أنني، من بين أحد عشر شخصاً معنياً، استبعدتُ خمسةً وأجّلت النظر في أمر ثلاثة؛ فلا يبقى إذاً سوى سيبريين وغيغو وأبولونيوس. فأمر هؤلاء الثلاثة يبدو أقلّ بساطة من أمر الآخرين. لننظر أوّلاً في أمر السيّدة فنسأل: لو أرادت حقّاً أن تقتل زوجها، لماذا لم تتّبع إيحاءاته ولم تلجأ إلى ميتة كهربائية؟ ولِمَ لجأت إلى خطة شديدة التعقيد؟ وهي الخطّة، وشأنها في ذلك شأن من أتينا على ذكرهم، التي لا علم لها بوجودها على نحو مطلق. . . إذاً تستبعد سيبريين أيضاً، أو على الأكثر، نضمّها إلى المجموعة الصغيرة من النساء اللواتي قد يكنّ مذنبات محتملات وإن كان ذلك غير مرجّح. . . هذا، بالطبع، بما يختصّ بالجريمة. ذلك أنّ لدي ما أقوله بشأن التمثال النصفي وباروكة الشعر المستعار. فأنا أعتقد أن السيّدة آكيلا قد حاولت، خشية بروز وصية ما تحرمها من الميراث، أن تستولي على الأوراق التي قد تحتوي نصّها، مباشرة أو من طريقِ شخص

آخر، مفتعلةً الحريق في مكانٍ مقدّس من بين أماكن أخرى...

غمغمت سيبريين التي احتقن وجهها بكلماتٍ لم أسمعها ثمّ لزِمت الصمت.

لم يضحُ فرانكالانزا من الدهشة التي خطفت لونه، وقال كأنّه سَمْع خالص: «إلى هذا الحدّ يبدو ما ذكرته متسلسلاً ومنطقياً ويقودنا، بعد رفع العنصر الثالث واستبعاده(*)، إلى الشخصين المتبقيين، وهما، بالذات، الشخصان اللذان تتهمهما الضحية. وينبغي، أو سينبغي، أن نختار أحدهما...فما...»

هنا انعقد لسانه، وتدخّل كورّو لينهي العبارة: «فما رأيك أنتِ؟»

كان الأمر أشبه بهبوطي على سطح القمر. فحاولت أن أضفي على نبرتي القدر الأكبر من الرصانة ومن النضج؛ ومستعيدةً في ذهني صورة بطل روايتي، المحاسب المقدام سيباستيان سودانو، الذي أجهدُ في أن أكون منافسه الأريب، رحتُ استعرضُ استقراءاتي واستنتاجاتي على النحو التالي:.

«لنبدأ بغيغو ميمونه. فرسالة الناشر الأولى تتهمه، فضلاً عن أنّ الاتهام يستند إلى مبرّرات متينة: فله كلّ المصلحة في موت شريكه؛ وهو مهدَّد بكشف أمور تفضحه؛ وبناءً على معلومة واضحة وتحريض من قِبل شريكه المذكور، تمكّنَ من الإحاطة بتقنيّة ما يُسمّى الموت البارد؛ كان حاضراً في مكان الجريمة خلال فترة وقوعها؛ وفي شهادة كاذبة أصرّ على الحديث

(*) باللاتينية في الأصل: tertium non datur

https://telegram.me/maktabatbaghdad

عن مَوْعِدٍ مع المغدور تبيّن لكم أنّه موعد مستحيل... وغيرها وغيرها من الشبهات التي تحوم حوله برغم الرسالة الثانية التي تميل إلى تبرئته. ومع ذلك فإنَّ أياً من هذه الشبهات قد لا يستخدم كدليل مادي ضده. حتّى قرينة سيارة الفورد ليست كافية: فباستطاعة أي كان أن يدسَّ دليلاً جرمياً في صندوقة سيّارة بمتناول الجميع ويمكن فتحها بكبسة إصبع...

ـ براڤو!» صاح غيغو مستحسناً، غير أنَّ «جوقة» من الصَّهصهة أخرسته.

«لننتقل إلى المحامي بلمندو، قلتُ. هناك ثلاثة أسباب تعمل في غير صالحه: الفائدة التي قد يجنيها من موت الناشر؛ تصرّفه غير الشرعي بالظرف الذي عهد به إليه والذي قد يكون محتواه قد أوصى إليه ليس فقط بطريقة ارتكاب الجريمة بل أيضاً بتحميل آخرين مسؤولية ارتكابها؛ وأخيراً، وجوده في مكان الجريمة لحظة تنفيذها. سوى أني أقف هنا وقفة تساؤل عمّا إذا كانت هذه الأسباب كافية أم أنّها مجرَّد يقينيات زائفة. لذلك أقول: دعونا لا ننخدع باليقينيات، فقد رأينا كيف أنها سرعان ما تتلاشى أمام أعيننا كجنّيات مورغان... كلُّ ما سبق ذكره لا يعني أنني أستبعد شيئاً، وإنما أردت أن أحذركم من مغبة الاستنتاجات المتسرِّعة، فضلاً عن التنبّه إلى تفصيل قد يبدو تافهاً في أعينكم وبلا معنى، لكنّه في نظري على قدر كبير من الأهمية. هل سبق لأحد منكم أن صادفَ في الأدب البوليسي قاطبةً، مجرماً يُدعى أبولونيوس؟ أيبدو ذلك ممكناً؟»

كنتُ آمل أن تبدر منهم، هذه المرَّة أيضاً، ضحكة أو

ابتسامة، غير أني سمعتُ، بدلاً من ذلك، غمغمةً أشبه بالاحتجاج، لكي لا أقول: أشْبَه بالعداوة. فسارعتُ إلى القول: «لم أقل شيئاً... غير أنَّ ثغرةً ما في القضيّة قد تكون عنصراً جدّياً لصالحه. فإذا كان يعلم، وإن كان علمه هذا قد تمَّ بطرقٍ موارية، أنّ أيام الناشر معدودة، فأين مصلحته في استعجال هذه النهاية المحتَّمة؟ ألم يكن من الافضل أن يَدعَ هذه المهمّة للزوج أو للصهر مع حرّيتهما التامة باختيار الوسائل، الحارَّة أو الباردة، لا فرق؟ وإذا افترض أنّهما لا يمتلكان الجرأة الكافية لذلك، لن يخسر شيئاً: يكفي، عندها، أن ينتظر بهدوء أن يفعل الورم فعله، لكي يتنعّم بالنتيجة دونما اضطرار لأن يُحرّك أصبعه... كانت هناك ظروف ضاغطة؟ ديون ملحّة؟ هذا ما ذَكره ميدار تبريراً لاستعجال المجرم، ولكن هل هذا سبب مقنع؟ دعكم من هذا الكلام، فما من مصرف قد يرفض لزبون مهلة إضافية... خصوصاً أن ميراث سيبريين، وحصوله عليه أمرٌ وشيك، يكفي لسداد الدين ويزيد. فلا بأس إذاً من الصبر قليلاً على الضائقة.

في هذه الحال نجد أننا عدنا إلى حيث انطلقنا: نحن حيال ميتة تمَّت بفعل فاعل وليس إثر حادثة ما، والمتَّهمون المحتملون كثر، ويرجَّح إثنان منهم على وجه التخصيص، دون التمكُّن من تثبيت التهمة على أيٍّ منهما. والشبهات التي تحوم حول كليهما مبنية على شكوك إمّا باطلة وإمّا ضعيفة وإمّا قابلة للنقاش. تماماً مثل لعبة الورقات الثلاث حيث يميل واحدنا، كلَّ مرّة، إلى اختيار الورقة المغلوطة.

ـ وهذا يعني؟» سأل الحاضرون بصوت واحد.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

كنتُ أعلم أنني هنا سأكون لهم بالمرصاد. فنهضتُ وأزحت بيدي خصلة شعرٍ انسدلت بعنادٍ على عينيّ، ثمَّ خاطبتهم بنبرة هادئة وواثقة:

«هذا يعني، أنَّه بناءً على ما عاينته وبيّنته وخصوصاً ما أدركته باستقراء أفكاري، يبدو لي من البديهي أن تتقاطع كلّ هذه الخيوط لتصبَّ في الهدفِ الوحيد نفسه؛ إذ تتضافر كلّ المعطيات للتدليل على كنيةٍ واسم. ولأني لا أريد أن أطيل أمد حيرتكم وترقبكم، يا سادتي المسؤولين، ويا سيّداتي وسادتي، إن القاتل هو...

ـ الضحية» قال كورّو بخبث.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

X

الجثّة تقع في الفخّ

وَددتُ لو أقطعَ لسانه بعضّة... أن يختطفَ مِسْكَ الختام من طرف لساني!... احتقنت عيناي مثل طفل في أوج حنقه. وتصلّبتُ في وقفتي مدركةً أنني قادرة على التريُّث وزمِّ نفسي. لكنّ ما جرى كان نقيض ما أدركته: فلم تمضِ ثوانٍ على الوجومِ السائدِ بين الحاضرين حتّى جَعَلتُ أبكي.

استغرق الأمرُ دقيقة: وإذا بكورّو يَهْرَعُ إليَّ بمنديله ولكن بعدَ الفوات. فقد ألفاني متبسِّمةً برغم دموعي، يستخفني الضحك لأنني أدركتُ، بلمح، أنَّ مشهد الذروة هذا، المبلَّل بالدموع، هو أكثر ما يلائمُ خاتمة كتابي «لَبْسْ». كانت مجرَّد فكرة عابرة لأنَّ للخاتمة تتمّة.

«الضحيّة؟!» صاحَ القاضي فرانكالانزا؛ ومتجاهلاً كورّو، خاطبني متلعثماً وقال: «ماذا تقولين؟ أعيدي ما قلت، فسِّري».

ولأنَّ اللعثمة أطالت في عبارته، أُتيح لي أن أتمالك نفسي وأتابع كلامي بهدوء: «أجل، الناشر. ومن دواعي سروري وافتخاري أن يكون آخرون (وهنا رَمَقْتُ وِليفي بنظرةٍ موارِبة) قد

توصّلوا إلى الاستنتاج نفسه. وأحسب أنّهم تمكنّوا من ذلك بالحدسِ وليس بالتعليل، لأنهم يجهلون بعض التفاصيل التي لا يعرفها أحدٌ سواي، وسواء كانت معرفتها محض مصادفة أم ثمرة جهد ومشقّة، هذه التفاصيل هي بمثابة قرينة وقد أطلق عليها أسماء «تقليديّة» على غرار ما توصف به بعض العمليات الحربيّة أو أعاصير جامايكا: Queue de paille, call and talk, Naturalis historia.».

كنت قد استعدت السيطرة التامّة على نفسي، ولا أجد كلاماً يعبرُ عن الزهوِ الذي تملّكني. كانوا جميعاً، باستثناء كورّو الداهية، يغالبون ذهولهم فاغري الأفواه، متلهفين لسماعِ التتمّة. حتّى كازابيني الذي كُلّف بحراسة المدخل، غادر مكانَه، عند اللحظة الحاسمة، وتسلّل إلى الداخل ليسمع. أمّا الخدم والآخرون الذي كانوا يتسكعون في جوار الجناح بخطى متمهّلة، فقد اقتربوا وألصقوا وجوههم بالواجهات الزجاجيّة دونما عائق متربّصين منصتين إلى نبرةِ صوتي.

«تشجّعي يا أستير، قلتُ في سرّي، تشجّعي يا أغاتا، لم يبقَ إلاّ القليل».

عندما استأنفتُ كلامي حاولتُ ما أمكنني أن تكون نبرتي متواضعة دونما المَسَاسِ بجلالِ الموقف. وقد تبيّن لي إنها مهمّة شاقة لأنني، سواء شئتُ أم أبيت، أصبحتُ على ما يُشبهُ خشبة المسرح وليس في نيّتي أن أفوّتَ على نفسي فرصةَ أن أكون ممثلة. «ذيل من القش»(Queue de paille) قلتُ شارحةً، هو

https://telegram.me/maktabatbaghdad

اسم القاتل. وكما يقول مَثَلٌ سائر توسكاني المنشأ، إنَّه الذيل الذي قد يشتعل في أي لحظة. ولكني، كما سترون، لا استخدم التسمية هنا كمجرَّد استعارة، ذلك أنَّ قذاةً (أو نثرة قشّ) أي ما هو الأكثر خفّةً من بين أشياء العالم، قد هَدَتني إلى الحقيقة: منها انطلقت، من قذاة عَلِقت بثوبي ذات صباح عادي، عشيّة الكارثة، وغداة النزهة بالزورق.

«كنتُ قد قصدتُ المرجة في ساعة مبكرة في الموعد المعتاد الذي اعتدتُ فيه أن أقابلَ ربّ عملي، وكنتُ جالسةً قبالة عرشه على حجر لا أذكر أنني لمحته، من قَبْل، في الموضعِ الذي كان فيه. لقد تراءى لي أنه مَقْعَد مغرٍ لطابعه الريفي البسيط، ولكنْ اتضح لي فيما بعد أنَّه متسخ أيضاً لأنني اكتشفت فور عودتي إلى حجرتي أن أثر تراب وقشّ عَلِقَ منه بفستاني. بدَّلتُ ملابسي وما كنتُ لأعير الأمر انتباهاً لو لم ألمحْ، بعد ذلك بساعاتٍ عديدة، نثرات قشٍّ مماثلة وقد علقت برأس مانوكان مخلَّع ومركونٍ، فوق، في المستودع.

«هذا الحجر وذاك المانوكان كانا موسومين بعلامة واحدة، وجمع بينهما أثرُ لمسةٍ مشتركة، والدليل عليها نثرات القش العالقة بهما، وقد أصبحت دبقة وليّنة لطول تعرّضها لمصدر رطوبة... لم أجد للوهلةِ الأولى ما قد يتيح لي الربط والاستنتاج. ولم أفطن إلى الأمر إلاّ في وقت لاحق، بعد مقتل ربّ عملي وإعلان رسالتيه الاتهاميتين، عندما التمعت في ذاكرتي صورة مستوعبات القش التي تغلَّف بها سبائك الثلج فور خروجها من المصنع... فأغمضت عيني وإذا بي أرى، كما يرى النائمُ، كتلة حجرية مثبتة على حافة دربزين، وقد اسندت قاعدتها على

جِسْم قابل للذوبان، كسبيكة ثلج مثلاً، يتضاءل حجمها شيئاً فشيئاً مع اشتداد حرارة الشمس. وتخيَّلت هذه الكتلة وقد هوت فجأةً على هدف سَهْل، نوع من الجسم المبتذل التجريبي، وُضِعَ مسبقاً في موضع الجسم الحقيقي المنوي قتله.

«هكذا اتضح لي مصدر نثيرات القش تلك، والتي انتقلت من الثلج إلى الحجر ثمَّ توزَّعت على نحوٍ متساوٍ بين رأس المانوكان المسحوق وقفا تنورَتي. وبكلام أوضح، لقد اقتنعتُ عندها أنَّ شخصاً ما، كما في تجارب الزلازل المفتعلة، قد عمد مؤخراً إلى اختبار أوَّلي لكي يتمكن من حساب المعادلة الحرارية بدقّة، والتثبُّت من مسار السقوط ووقعه ونتائجه القاتلة... ومن تراه يكون هذا الشخص سوى ميدار، ميدار نفسه، الذي اعتاد أن يخطط بدقة متناهية لمشاريع كتبه؟»

بدت لي صيغة السؤال الصيغة الأنسب لالتقاط أنفاسي.

«ولِمَ هو بالذات؟» سألت ماتيلدا بشيء من التردُّد بعد فترة صمت. وكانت تداري حركة يدها العصبية بربطِ وفكِّ منديلها الشيفون البنفسجيّ حول عنقها.

«لأنّه الوحيد، أجبتُ قائلة، الذي توفَّرت له الفرصة عندما آثر البقاء في الڤيلاّت بعد أن ذهبنا جميعاً، أمس الأوَّل، في نزهة بالزورق. ثمَّ إنَّه هو من فاجأته في اليوم التالي بجوار المانوكان خلال محاولته، على ما أظنّ، التخلُّص من شاهد مزعج.

ـ إنها قصّة لا تُصدَّق؛ ومتناقضة؛ ومثل هذه الأدلّة من شأنها أن تثير الضحك في المحكمة.

ـ لا تُصدَّق ولكن فيها ما يكفي من اللا معقول لكي تكون

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حقيقية» أجبتها باقتضاب، فما كان من كورّو إلا أن تدخّل قائلاً: «مهلاً؟ دعونا لا نخلط بين معقولية الدليل وبين ظاهره. إنّ القذاة لا معنى لها بحدّ ذاتها، ولكنها قد تكتسب معنى ما إذا وجدت في مكان لا ينبغي أن تكون فيه. وإنْ سمحتم لي بملاحظة اعتراضيّة غير لَبِقة، أقول إن المهمّ في مثل قضيتنا لا أن نكشتف عموداً في عين بقدر ما أن نكتشف قذاةً على...» وتردّد قليلاً كأنّه يَزِنُ احتمالين للتعبير قبل أن يُضيفَ مُتحفّظاً: «...مؤخرة».

وبمّا أن المؤخّرة المعنية هي مؤخرّتي، أحسستُ بامتنان عميقٍ حيال تلميحاته. لكنّه سرعان ما أردف تلميحه بكلام رصين كأنّه نادمٌ على ما بدر منه من حسّ الدعابة: «إن هذه الفَرضيّة، بالإجمال، تروق لي. يبقى ميدار وحيداً يراقب الزورق الذي يبحر بضيوفه وقد أصبح نقطة متلاشية بالأفق، ويتدبّر ذريعة ما، يمكن التثبت منها، لإبعادِ الأجراء المتبقين على اليابسة، ثمّ يصعد إلى المنظرة ويتجه إلى المستودع ويحمل دمية القماش التي اختارها كبديل في التجربة التي سيجريها كطالب نجيب في أصولِ الإنتحار؛ يضعها على العرش ويعود إلى المنظرة، فيزحزح تمثال أشيل النصفي ويرفعه ويضع مكانه كتلة صخرية بوزنه ويدسُّ تحتها سبيكة من الثلج كان أحضرها معه مغلّفة داخل علبة بين طبقتين من القش...

ـ سبيكة؟ سأل القاضي محتجاً. ومن أين أتى بالسبيكة؟

ـ إذا كان الأمر يتوقف على السبيكة فهو أمر يسير، قالت سيبريين التي تابعت التحليل برضا واضح؛ ماكينة الثلج ما زالت تعمل: يُشغّلها هايله كلَّ صباح ويدعها تعمل طيلة النهار. الباب

مفتوح وباستطاعة أي كان أن يدخلها ويأخذ منها ما يشاء. إنها تبعد خطوتين عن الدربزين...

ـ وبالتالي، فالقضية أشبه بلعبة أطفال، أردف كورّو قائلاً. ولا يستغرق الذهاب إليها والمجيء منها أكثر من نصف ساعة. بعد ذلك يقف ميدار في مكان ما ليراقب تفاعل حرارة الشمس حتى ذوبان قطعة الثلج وسقوط الكتلة الحجرية ساحقةً الهدف. وبعد نجاح الاختبار يعمد إلى تنظيف المكان ويعيد التمثال والمانوكان إلى مكانيهما ويجمع الأدوات والبقايا ويخفيها، بانتظار استعمالها مجدداً، في صندوق سيّارة غيغو. وبدا أن الأمور تسيرُ بدقّة متناهية... لولا أنَّ الماكياج لم يكن متقناً، ذلك أن الناشر لم يكلّف نفسه عناء التخلُّص من الحجر وإخفائه لأن وجوده في المكان الذي وجد فيه بدا له طبيعياً وغير مهمّ. كما أنه سها عن هذه الأعواد الصغيرة الدبقة المتناثرة في الأرجاء ولم يخطر بباله أن الآنسة استير ستجلس حيث لا ينبغي أن تجلس وأنَّ ثوبها كالمغنطيسِ الجاذب... كما لم يخطر بباله أنها بمثل هذا الفضول وهذا المكر...».

إحتقن وجهي ابتهاجاً، وإن كنتُ أشعر، في سرّي، بأنَّه خطف الأضواء مني. غير أن بهجتي تضاعفت أضعافاً عندما طرح السؤال التالي معيداً، بلياقة، الكرة إلى ملعبي: «بالنسبة لذيل القش أصبح الأمر واضحاً؛ ولكن ماذا عن تلك التسمية الغريبة: «اهتف وحدِّث؟» (call and talk).

«إنّي مقتنعة، قلتُ مُتلَذِّذة بكلامي كأنَّ له مذاق العسل، أنَّ ما من خطأ في السلوك البشري إلاّ وله تفسير، وبما أنَّه قابل

https://telegram.me/maktabatbaghdad

للتفسير فلا بدَّ من أن يكون له قاعدة. وأقصد بكلامي هذا أنَّ ثمّة أخطاء في سلوك ميدار، سواء كانت ناجمة عن السوداوية العصابية التي عانى منها أو عن الاضطراب الذي سبَّبه له المرض وعواقبه المحتومة، تتَّبع، في فوضاها الظاهرة والمتعرِّجة، منطقاً يُمكن أن نرسم تخطيطه البياني وفق ما ترتسم نفثة ملتفة من الدخان أو بحسب التخطيط البياني لخفقات القلب... هناك مثلاً إصراره على ذلك الرهان الذي جاء في غير وقته، أي غمرة التشنج السائد، والذي سرعان ما اتضح أنَّه ثمرة نوايا مبيّتة وليس مجرد نزوة. لقد أدركت أنّ المهمّ في نظره أن يوثِّق تدويناً، تصرّفات عدويه اللذين ضربَ لهما موعداً عند المَنْظَرة وفي ساعة وقوع الجريمة لكي يبقى لسلوكهما هذا أثرٌ مدوَّنٌ على الورق. والحقيقة أنّه مهما بلغت شدّة تصميم ميدار على الموت، فإنّه ما كان ليختار مثل هذه الطريقة الوحشيّة في الاقتصاص من الذات، دون أن يحدوه الأمل، لا بل الثقة التامّة بأنّ شخصاً ما، حتّى لو كان بريئاً، سيدفع ذات يوم ثمن اختفائه. وهكذا أفهم الآن طبيعة المهمّة التي أوكلت إليّ لمراقبة روحات وغدوات المجموعة خلال فترة الصباح؛ وأفهم الآن معنى اتصالاته الهاتفية المتكرِّرة ليبقيني، باستمرار، عرضةً لإلحاحه...

ـ قد يؤخذ ما سأقوله الآن ضدّي وقد يكون على شخص آخر سواي أن يقوله، قال المحامي بلمندو مقاطعاً، ولكني لا أفهم كيف تمكن ميدار من أن يتدبَّر أمر هذه العملية الانتحارية، وهو لم يصعد حتّى إلى الدربزين في ذلك الصباح...

ـ بلى صعد إلى الدربزين، بلى، صعد! صاح غيغو. لقد سبق وأخبرتكم بذلك. كان ينتظرني بقرب التمثال اليوناني،

وأعادني خائباً إثر دقيقة من الشتائم، لكنَّه كان هناك، لقد رأيته.

ـ لو أنَّه صعد حقاً إلى هناك لكانت الآنسة أستير قد لحظت ذلك في مدوّناتها، لفتَ القاضي فرانكالانزا بنبرة صارمة وراح يُنقِّل أنظاره بين الحاضرين طلباً لموافقتهم.

ـ إلاّ إذا... أجَبْتُ ثمَّ صمتُّ طلباً للمزيدِ من التشويق، ثمَّ أردفت قائلة: «كانت هناك وسيلة للتصرُّف دونما مخاطرة: اهتف وحدِّث. أن يتصل بي هاتفياً ويتحدَّث إلي مقيماً بذلك حجَّة غيابٍ لا تُنْقَض خلف ستار سلسلة من المخابرات الهاتفية». ألقيتُ نظرة إلى ملاحظاتي: «لقد خابرني ميدار مراراً في ذلك الصباح. لكنَّه خلال مخابرتين، في غضون نصف ساعة، قال لي إنه لا يسمعني جيداً وطلب مني أن أدنو بالهاتف النقَّال من قاعدته وأدرك الآن أنها لم تكن سوى ذريعة لإبعادي عن النافذة ريثما يتمكن من الصعودِ إلى الدربزين والعودة منه دون أن أراه. والمؤكَّد أنه حين خابرني كان قد غادر المرجة ووقف على بعدِ خطوتين من نافذتي ريثما أبتعد. كذلك الأمر بالنسبة لفترة عودته من هناك بعد أن جهَّز بنفسه آلة الموت التي ستودي بحياته. وبذلك يكون غائباً عن مكان الجريمة في الوقت الذي أرغم فيه المتهمين المزعومين بأن يكونا هناك لتأكيد التهمة...

ـ يبدو لي هذا التحليل متضمِّناً ما يكفي من اللا معقول لكي يكون معقولاً»، قالت ليديا أوريولي موافقة، مردِّدةً عبارتي دونما شبهة استهزاء. فلزمت الصمت متلذذة بذلك الاجماع الموقت من حولي. غير أنَّ متعتي لم تدم طويلاً: لقد تكفَّلت

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ليبتا بإفسادها؛ فما كان منها إلاّ أن أجفلت من كبوتها وأعلنت أمام الحضور الصامت بصوتٍ طروب أنها حامل! فتحوّلت أنظار الجميع إليها.

ممّا لا شكَّ فيه أنّ الفتاة بَدَت في أوج سلطنتها كما يُقال. أما من أين جاءت الجرعة، ومنذ متى عاودها الإدمان، فأسئلة لم أعثر على أجوبة لها. ولكنَّ الأدهى من ذلك كلّه هو مظهرُ التسامح الورع الذي ارتسم على وجهِ جوليان الدجّال لدى سماعه النبأ وكأنّه يؤكّد فحواه، مُشرقاً مغتبطاً كما يليق بأبٍ عتيدٍ أن يكون...

«تزوّجها إذاً، قلتُ في سرّي وقد آلمني تدخلها الذي قطع علي استرسالي. تزوج بطنها الممتلئ، وشراينها المسمومة. أمّا أنت، يا صبية، فدعيني لعملي!»

استجابت وتركتني أعمل. أهدت جبينها لقبلةِ ما قبل الزواج طبعها الراهبُ عليه، ثمّ، متوسّدةً ركبتيه، استأنفت كبوتها.

«هناك تعليل آخر، قلتُ مستأنفة خطابي بعد أن قوطِعَ بهذا النبأ الذي أفقدني بعضَ الثقة بنفسي. تعليل يوقع المكّار في حبائله ويبطل حجة غيابه. فبحسب ما كان يؤكّده لي خلال مخابراته ينبغي أن يكون أمضى الساعة الحاسمة التي سبقت وقوع الجريمة، مسترخياً على عَرشه ومنكباً على قراءة كتابي «لبس»، وكان يتصل بي بين الحين والآخر ليؤكد هذا الأمر. والحال أنَّ ما قاله غير صحيح. ذلك أنني اكتشفت هذا الصباح، عندما

عثرتُ على مخطوطة كتابي الملطخة بالدم والمصنّفة في عدادِ الأدلة الجنائية، أن جميع فصولها من الأوّل وحتى ما قبل الأخير لم تمَسّ أي أن أوراقها ما زالت ملتصقة ببعضها البعض بفعل طبقة رقيقة غير مرئية من سائل سكوتش اللاصق. وتلك عادة قديمة لدى الكتاب المشاركين في مسابقة ما بغية التثبُّت من أن أعضاء لجان القراءة قد قرأوا مؤلفهم فعلاً.

ـ أيعني هذا أنه لم يقرأه؟ سأل كورّو مستهجناً؛ ولكن من أين جاء بكلّ هذه التعليقات حول روسيل وأدوار الشطرنج، وما شابه؟

ـ ترّهات، ذرّ رماد في العيون. لقد قرأ الصفحات الثلاث الأخيرة، الخلاصة ليس أكثر. وانطلاقاً منها ادّعى أنّه قرأ الكتاب كلّه».

تدخّلت ليديا بشيءٍ من الخبث وقالت: «هذا لا يكفي لاعتباره مذنباً. فقد لا يقرأ الناشر من بعض المخطوطات المضجرة إلاّ الصفحة الأولى والأخيرة...»

لم أُجِبْ. «أتريدون دليلاً أخيراً؟ تابعتُ قائلة إنه دليل بهشاشة خيط العنكبوت لكنّه، كخيط العنكبوت أيضاً، قادرٌ على أسرِ الذبابة. الدليل هو التالي: تذكرون جميعاً رسالة الناشر الأولى وفيها يأتي على ذكر فرضيّتين لموته قتلاً، الحارّة والباردة. فكيف عمد إلى استبعاد الأولى، أي فرضية المغطس، بكلمات معدودة في حين أنّها بدت قابلة للتنفيذ مثلها مثل الثانية؟ وكيف انصرف إلى بيان تفاصيل الفرضية الثانية، كأنّه كان يعلم مُسبقاً، بإحساسٍ نبويّ، أنّه سيتعرّض لمثل هذه الميتة وليس لأية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ميتة أخرى؟ ألا تجدون في ذلك مفاضلة؟ ألا يمكن الاستنتاج، بناءً على ذلك، أنه، هو بالذات، ليس فقط مبتكر الخطّة بل إنّه أيضاً منفذها ذهنياً(*). ثمّ، ألا ينبئ هذا الميل المفرط إلى الكتابة الاتهامية بغزارة مشبوهة؟ مثله في ذلك مَثَل الرامي الذي لا يكتفي بهدفٍ واحد، بل يودُّ، لشراهته، أن يصيب أكثر من هدف برمية واحدة...

ـ ومع ذلك، قالت ليديا أوريولي مُرجِّحةً رأسها فَتُحدِثُ أقراطُ أذنيها جلبةً مكتومة، يتراءى لي أنَّ ثمة مغزى لاستهدافاته المتتالية، متجنِّباً بذلك الإصابات المزدوجة: سيبريين وغيغو، سيبريين وأبولونيوس... إنها هفوة غريبة، على ما يبدو لي. كأنّه أراد أن يخيف زوجته من جهة، وأن يحميها من جهة أخرى...».

وافقتها الرأي، لمرَّةٍ وحيدة فلا يُعقل أن تصبح عادة. أرأيتم كيف تنمّي الغيرة ملكاتِ العقل! غيرأنَّ دافنيه دوڤال عبَّرت عن شكوك لم تبدَّد لديها: «لننتقل إلى النقطة الثالثة يا سيدتي الشُرطية، ذلك أنَّ الختامَ هو سيِّد الأحكام. فماذا تعني العبارة اللاتينية: Naturalis historia؟».

كأنّها أجزلتني العطاء. «إنّه مؤلَّف ذائع لپلّينُس الأكبر. يتضمّن الفصل الثالث من الكتاب العاشر من «التاريخ الطبيعي»، رواية الميتة الأسطورية لأشيل(لقد اتَّصلت بأحد المختصّين بالأدب اللاتيني للتثبّت من الأمر). إذ يُروى أنّه مات مسحوقاً تحت درع سلحفاة أسقطها عليه نسرٌ محلِّقٌ في سماء «جيلا»؛

(*) باللاتينية في الأصل: in pectore

وقد حدث ذلك منذ خمسة وعشرين قرناً من الزمن. ويبدو لي أننا هنا حيال جناسٍ تهكُّمي لا أجدُ حَرَجاً من وصفه بالحَمَق: لأنَّ النَّسر هو قاتل أشيل، فإنَّ أشيل سيقتل النَّسر، أي آكيلا(*)، وبذلك يتمّ تدوير الدائرة».

قالت ليديا وقد غضَّنَ الحَسَدُ وجهها: «إني لا أصدِّق، لا أصدِّق! وما كنتُ لأصدِّق حتى لو قرأته في رواية.

ـ لكننّا في رواية» أجبتها بخفة، وقبل أن يتسع وقتها لتبدي دهشتها، أردفتُ قائلة: «لديّ المزيد في جعبتي، اسمعوا. هل لاحظتم أنه من بين التماثيل النصفية لحكماء اليونان السبعة هناك تمثال ناقص، دون أن ندري لماذا، وهو تمثال طاليس الذي استبدل بتمثال شاعر؟ وماذا لو قلت لكم أنني عثرتُ في المستودع بين أشياء أخرى مهملة، تمثالاً لطاليس من رخام؟ لقد تمَّ استبدال الفيلسوف بشاعر تراجيدي. ولا أظنّ أن هذا الاستبدال قد جرى بمحض المصادفة، إذا أدركنا أنَّ المُسْتَبْدَلَ كان يرى في الماء مبدأ الحياة ومآلها؟ في حين أن قطعة الثلج التي استحالت ماءً في قضيتنا هي مصدر الموت... غير أني ربَّما أكونُ قد استرسلتُ تماشياً مع ميلي المفرط إلى الاطناب، أو ربَّما لم يكن الأمر سوى مصادفة...

ـ بل مزحة» قالت ليديا أوريولي على سبيل الدعابة، لكنّها بدت مذهولة ومقتنعة.

«يبدو لي أنَّ في كلِّ هذا أثراً من نزعة ما بعد حداثوية»

(*) Aquila بالإيطالية تعني: نسر.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

غمغم النحّات قائلاً، دون أن يدري أحدٌ قَصْده ممّا يقول. وبدوره تأتأ فرانكالانزا قائلاً بشيءٍ من الحيرة: «إنَّ الشكوك التي تراودني ذات طابع حسّي: فإذا كان آكيلا قد بذل كلَّ هذا الجهد لكي يصعد إلى الدربزين بهدف تدبير مكيدته دون أن يراه أحد، كيف أتاح لغيغو أن يراه ولو لدقيقة واحدة؟...»

كان هذا السؤال قد ألحَّ عليَّ بالفعل. مصادفة غير متوقَّعة، أجبتُ. فلنفاد صبره وصل غيغو بسرعة غير متوقَّعة. والحقيقة أننا لا نعثر إلاّ في الكتب على تسلسل مثالي ودقيق للأحداث. أمّا الواقع فيسمح لنفسه بتَرف ألاّ يكون متماسكاً»...

نهضت ليديا أوريولي: «ولكنَّنا في كتاب! وهذا كلامك أنت! ولدينا واجبات حيال القرّاء...

ـ أنا! قلت مستنكرة. حتّى لو كان ذلك صحيحاً، فالغلطة غلطتهم!».

بقي مسك الختام: «بمثابة خلاصة، خاطبتهم بما يشبه الصراخ، ألا تشعرون بقوة هذه القرائن كلّها؟ لقد كان ميدار يعلم أن أيامه معدودة، فأراد أن يحظى بميتة مسرحية بدل الاحتضار المؤلم. فاختار ليس فقط أن يقتل نفسه، بل أن يموت ضدَّ شخصٍ ما، غيغو أو بلمندو، لا أدري، وقَبْلهما ضدَّ العدو الداخلي الذي اجتاح دماغه، ضدَّ ذلك الورم الخبيث الذي تفشى فأفْسَدَ رصانة فكره إن لم يؤدِّ إلى فسادِ ذكائه. وهذا الفكر بالذات هو ما أراده أن يُسحق تحت ثقلِ حجر...

ـ إنها حالُ هذيانٍ لا تخلو من الجلال» قال جوليان معلّقاً،

وإذ غلبته نزعة الاقتباس أضاف قائلاً «فأخذ شاوُل سيفَه وسقط عليه...»(*).

ـ هذيان مفكّر، ملتبس، قُلْتُ بغيةَ التصويب؛ ذلك أنني أعلم يقيناً أنّه لم يكن فقط ليستعجل وضع الشخص أو الأشخاص الذين يمقتهم في موقف حرج، بل كان أيضاً يستعجل إنهاء سخرية حياته بميتة ساخرة. فما يعترضنا ليس لغز جريمة كاملة، بل لغز انتحار كامل لن يترك من الأثر سوى نقحة من الرطوبة يمكن أن يكون مصدرها الندى المسائي كما يمكن أن يكون بول عصفور... وتحت ثقلِ أشيل الأجلح مثله... متحدياً ذكاءنا بأن يحلّ مثلَ هذا اللغز المرمَّز، واثقاً من عجزنا، مغتبطاً لخداعنا مرةً أخيرة... وينبغي ألاّ ننسى، في سلوكه المكّار، حسابه الدقيق لأتفه التفاصيل، كحرصه، مثلاً، على اختلاق ذريعة لابعادي عنه، مباشرةً قبل سقوط الحجر عليه، لكي لا أتعرّض لسوء جزاء تدحرج الحجر... ألا ترون أنَّ مثل هذا كلّه خليق به؟.

ـ هراء! قالت ليبيتا التي كانت قد استيقظت منذ بعض الوقت، وأصغت وهي تداعبُ بطنها براحة يدها.

ـ لقد وقعت الجثة في الفخّ»، قال آموس بمثابة خلاصة؛ فصفّق الجميع.

لم أشأ أن أعلم، بنحوٍ خاص، ما إذا كان النجاح الذي حققته يعود، بالدرجة الأولى، إلى الارتياح الذي أحسَّ به كلّ

(*) سفر صموئيل الأوّل، 31، 4.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

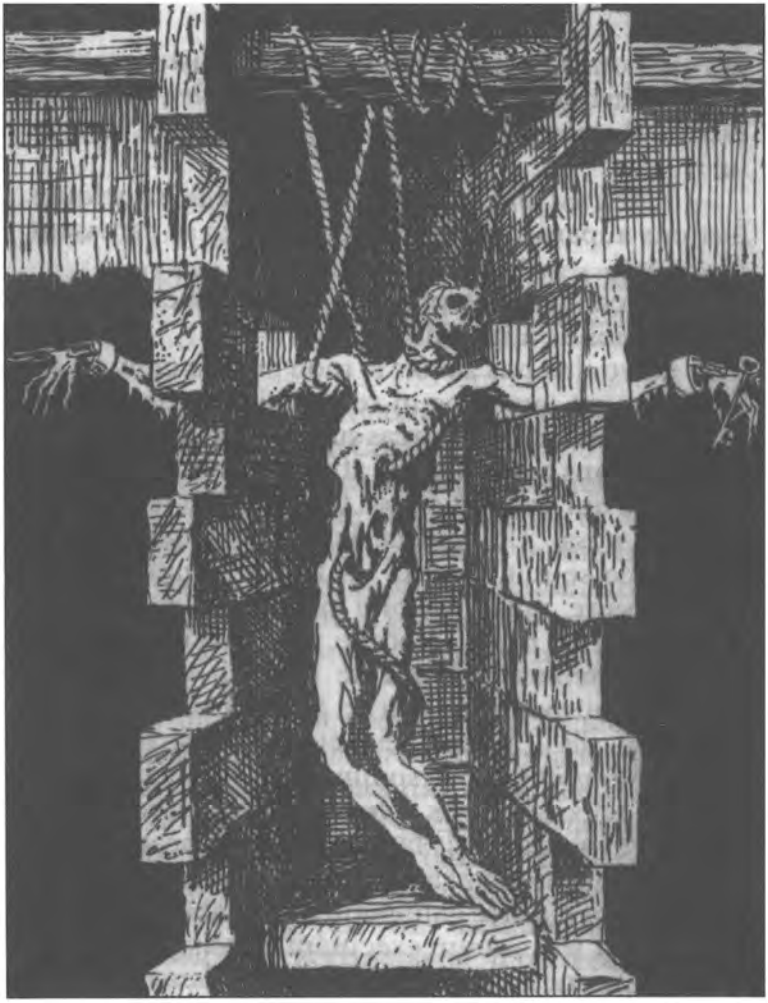

«لقد وقعت الجثة في الفخّ.»

واحدٍ من الحضور لتبديد الشبهات من حوله وإبطال الحرج الذي سبَّبته اتهامات الميت في هذه القضية الغريبة. واكتفيتُ بالاستمتاع بالمشهدِ الذي أراه أمامي. نهض كورّو، وتبعه فرانكالانزا. ولوهلة خشيتُ أن يبدأ الجميع الكلام مع الجميع في وقتٍ واحد، غير أن الكوميسير، بعد لحظةٍ من التردُّد، انحنى وعاود الجلوس. عندئذٍ ألقى القاضي خطاباً خالياً من اللعثمة والتأتأة: «شكراً للآنسة استير ولتقريرها الأريب، قال، وبناءً عليه يمكن اعتبار القضية منتهية. أنتم جميعاً، نحن جميعاً ـ وأحسب نفسي في عدادكم ـ أبرياء. لقد كانت الجريمة مجرَّد انتحار، وإن بدا التخطيط له غريباً ومضلِّلاً، ويمكن اعتباره أنَّه تصرُّف صبياني مشؤوم، أو أنَّه دور من أدوار لعبة القطَّة العويصة، ولا يستحقُّ منَّا مرتكبه، وهو الجاني والضحيّة، إلاّ وقفة صمت. وبعض الإشفاق.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

XI

منظر على البحر مع أشكالٍ ووجوه

عدتُ إلى الـ «مالكونتونت» بعد ذلك ببضعة أشهر بصحبة كورّو.

وكنّا قد التقينا بمحض المصادفة، ذات نهار سبت مطير، في شارع «يسوع ويوسف ومريم» لمناسبة افتتاح معرض «أكفان»، أمام الشرشف الملطَّخ نفسه؛ كنتُ منكبّةً في تلك اللحظة على فكّ رموز العنوان في كرّاس مطويٍّ ملوَّن؛ وكان هو يُبرطمُ بصوتٍ خفيض وقطّبت التكشيرةُ زاوية أنفه: «الأحرى أن يُرْسَلَ هذا إلى المصبغة!».

لم يلبث آموس أن هَرَع إلينا ملهوفاً، كأنّه ليس هو، لشدَّةِ ما أوهمنا في السابق أنّه غير مبالٍ بالمجد والشهرة؛ لازمنا متلهِّفاً لسماع تعليقاتنا مجيباً بإيماءات مطواعة فَرِحة، واستدرجنا للإبتعاد عن طاولةِ المازات والمقبِّلات. عناق وقبلات حين التحقت بنا دافنيه وأحاديث حول مزايا الكتّان المعنون: «طمث آديل»، والدَبْلان المعنون: «المَسْحُ الأقصى» والمرفق بشهادة منشأ تفنِّد مصادر التعرّقات الفانية، إلى أن ظهرت سيبريين فجأةً بصحبة

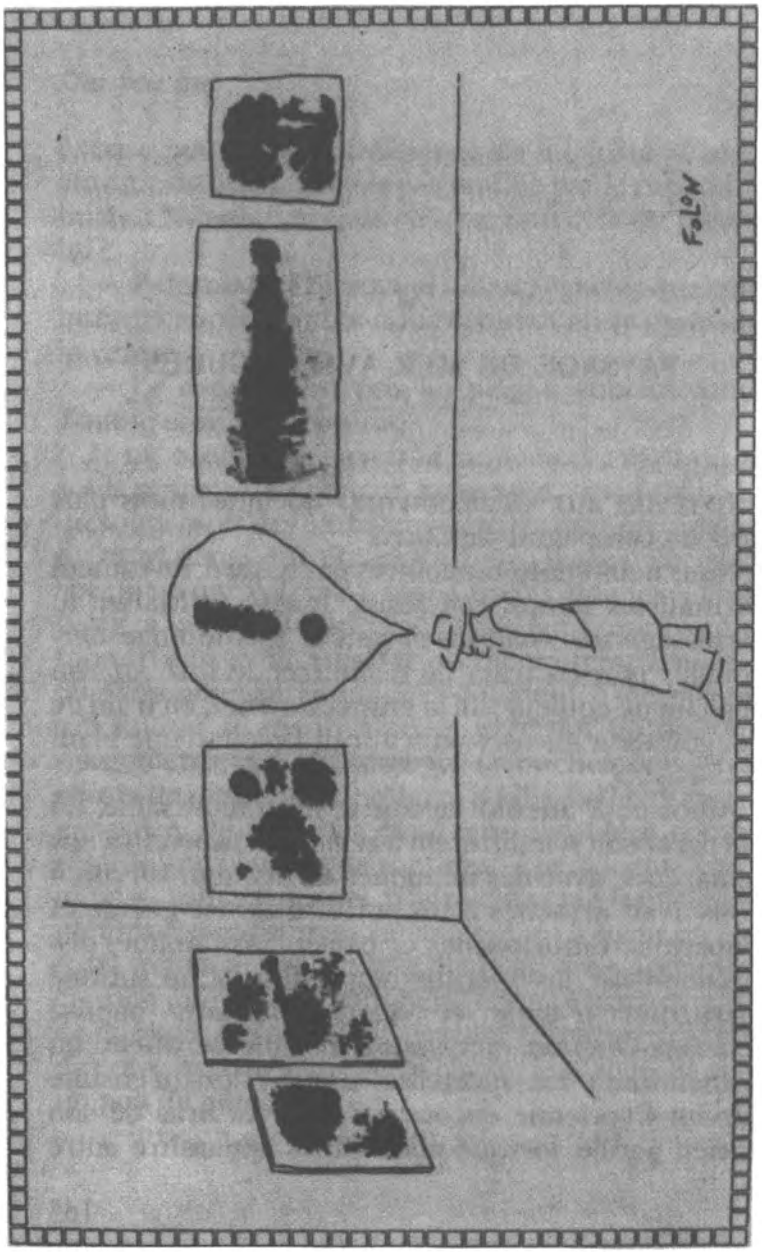

«الأحرى أن يُرْسَلَ هذا إلى المصبغة!»

https://telegram.me/maktabatbaghdad

مرافقها السابق وبثياب الحداد، ولمحنا على بُعد صفين من المعجبين الخُلَّص صاحبة الألوهة الأسطورية ماتيلدا غارّو وفي ذيلِ خطاها ليبتا المكوَّرة البطن تحت كولون السومون، وفي ذيلها نيستيكو؛ وختاماً كان صوت غيغو الذي علا ببذاءة تناهت إلى مسامعنا من وسط شلّةٍ من الحضور... وعليه آثرنا ألاَّ نكون طرفاً في لقاءِ الأحبةِ هذا وهَرَعنا مستظلّين بمظلّة واحدة إلى الخارج.

عند باب المصعد، وفيما كان يُسمعني الكلامَ المعتاد دون الإشارة من قريب أو بعيد إلى فترة اختفائه الطويلة، دعاني كورّو لقضاء يوم الأحد معه؛ أقبل دعوته وأقترح أن نقصد للمناسبة شاطئ لقائنا اليتيم. ليس فقط لأنني أرغب في استرجاعِ بعض ما نسيته هناك في ارتباكِ الوداعِ والرحيل، بل أيضاً لأن مظهري قد يبدو بائساً في ظلِّ ديكور مختلف: فكلّ حركة من حركاتي، وكل كلمة من كلماتي، تنضح باكتئابِ الكبرياء المجروح.

لقد طرأت أمور عديدة خلال تلك الأشهر المنصرمة. فقد علمتُ من الصحف أن كورّو متزوج وله أولاد. ليسَ لأنَّ الأمر مهمّ... ولكنّي، برغم ذلك، بكيتُ طوال الليل. وكما كانت أمي تقول، إنَّ لي وجهاً كأنَّه خُلِقَ لكي يبكي. كنتُ في أعماقِ ذاتي قد وضعتُ حدّاً نهائياً لهذه القصّة التي بدا، هو نفسه، بأية حال، قد نَسِيَها قبل أن أفعل بوقتٍ طويل بامتناعه عن الاتصال بي أو مراسلتي. أما غير ذلك، فقد انصرفتُ، دون التخلي عن وظيفتي، إلى نشاطٍ آخر زاولته بنجاح كمُحاضِرة؟ وكنتُ أختار لنشاطي هذا العناوين الأكثر جرأة: «قضية آكيلا ونظرية الكوارث»؛ «استخدام القراءة المتعذِّرة في تفسير الأحلام»؟ «قصّة

أحجية أوديب للأمير أولاف»... مهنة لم تكن في الحسبان لكنّها النتيجة الحتمية لمآثري في التحقيقات التي أجريت في الحقبة السابقة والتي ثمّنها المراسلون العدليون في الصحف ولم يبخلوا بتقريظها وتحسينها. وإلى ذلك تمكّنت أخيراً من مراجعة روايتي وإعادة النظر فيها فحذفتُ (لأسفي الشديد) شخصيّة البطل، المحاسب سودانو، واستبدلتها بشخصيّتي («لَبْسٌ» مرّةً أخرى). وضبطتُ سياقها بما يتماشى مع الأحداث التي عشتها، الزاخرة بالانقلابات المفاجئة، والتوريات الكلامية، فلاقت الرواية إقبالاً من قبل الجمهور برغم المقدّمة المبطّنة المعاني التي كتبتها لها ليديا أوريولي. والنقّاد، النقّاد الأصدقاء الذين امتدحوا مأثرتي ككاتبة ما زالت تؤمن بفضائل اللغة الموروثة، وتحدّثوا عن براعتي في تشويق القارئ وما حسبوا أنّه مشابه للعبة فيلاسكيز في لوحته «المرافقات» التي تراوح بين الفنّ والزخرف والواقع، حتّى أن أحدهم اقتبس، ولا أدري لماذا، عن كارل پوپر، وآخر ذهب إلى حدّ الكلام عن «الكسوريّات»(*) فكان أن حبست نفسي في المرحاض لأضحك على سجيّتي...

أمرٌ واحد منغّصٌ، مثل الرمادِ في العيون، في جوقة النجاحات المتتالية؛ أمرٌ طرأ فور رجوعي إلى المكتب بعد تلك الإجازة المأسوية؛ فبرغم اقتناعي بأنني لن أجد أية رسالة، أدرت، بحكم العادة، المُجيب الآلي، وكنتُ على ثقة أنني لن أسمع بعد الإشارة الصوتية سوى حفيف صمتٍ مسالم. ولكن

(*) مصطلح نحته عالم الرياضيّات بونوا ماندلبرو في بحثٍ عنونه: «الأجرام الكسورية: الشكل والمصادفة والبُعد (1975).

https://telegram.me/maktabatbaghdad

بدلاً من ذلك سمعتُ، بعد نحنحة مصوَّتة على نحوٍ ما يفعل المنشدون الأوبراليون استعداداً للإنشاد، سمعت ضحكةً كنتُ قد أَلِفتُ رنَّتها، ضحكة سرعان ما استحالت صهصلةً وكركرة موقَّعة لكي تدوّي، آخر الأمر، في قهقهةٍ متدفقة على نحو ما يتدفَّق نهرٌ في ريفٍ واسع. وعندما توقف الضحك، أصغيتُ قليلاً علَّ صوتاً بشرياً يتبعه ويفسِّر معناه. ولكن لا شيء؟ لا شيء على الاطلاق، سوى ذلك اليقين الذي انبثقَ فجأةً في داخلي: لقد اتصل الناشر، قبل أن يموت، من الڤيلاّ على رقم هاتفي في المدينة، متلذذاً بتسجيل ضحكته الموجَّهة، من خلالي، إلى العالم بأسره، إلى الكون، إلينا جميعاً، نحن شهود نهايته الوشيكة... ضحكة استهزاء تدفعنا إلى التساؤل عمَّا إذا كانت مجرَّد تمرين صحّي بغية تصريف المكبوت والمبيَّتِ، أم طريقة في نقدِ وتشريح غيظنا المستقبلي حيال لغز موته، أم أنها تعبيرٌ أجشٌّ ومتنكّر لنحيبِ وداع.

ولِمَ اختارني أنا بالذات كمُستَلم وحيد لرسالته الأخيرة؟... كفى، ما عاد الأمرُ يستحقُّ أيَّ انتباه؛ وتابعتُ عملي المعتاد في دار النشر باذلة في سبيله أقصى ما لديَّ من طاقة ما حدا بأصحاب الدار الجدُد، بعد وفاة ميدار وإفلاس غيغو، المضيِّ في تسيير أعمالها.

خلال الليل لم يتوقف المطر، فوقفت طويلاً خلف زجاج النافذة أحصي خيوط المطر المنسربةِ على صفحته كأنها قضبان سجن رمادي رأيتُ فيه سجني. بين زاويتين يافطةٌ مبتلَّة عن حسومات تتلاعب بها الرياح فَتُصدِرُ اصطفاقاً كاصطفاقِ شرشف فتذكرني بمعرض آموس، وحشد الافتتاح، وميدار الغائب

الوحيد، والمغطّى اليوم بغطاءٍ من نوع آخر. كُنتُ أظنّ أنَّ من هو مثلي يلتهم الذكريات كما يلتهم الضَّبع الجثث، غير أني لم استطع أن أطرده من ذهني. وعندما غفوتُ، أخيراً، احتلَّ فسحة أحلامي حتَّى استيقظت عند الصباح بمزاجٍ معتكر كأني أعادي العالم بأسره.

هَبَطتُ السلَّم سيراً كيما ألينَ أطرافي التي صلَّبها الخدر. كان موعدي عند بوّابة المدخل في تمام التاسعة؛ وكان كورّو في انتظاري هناك حاملاً باقة من الفريزية. قبَّلني، فبادلته القبلة ولكن بدفءٍ غاربٍ كمثلِ الشمسِ المحتجبة في السماء. ما إن جلست بقربه داخل السيّارة، حتى تردَّد الكلام على لساني فسألته بجفاءٍ بادٍ: «أين زوجتك؟ والأولاد؟ لِمَ لمْ تحضرهم فاللوحةُ، برفقتهم، تبدو أكمل وأجمل».

لم يُجب، فشعرتُ بالحرج، إذ لم أكن راغبةً في جرحِ مشاعره، بل أردت أن يشعر بالارتياح حين يعلم بأنني أعلم وأجنّبه كلَّ التبريرات والأعذار التي فكَّر فيها مليّاً وأبقاها ماثلة في ذهنه.

وعندما أطلعته على القصدِ من سؤالي استعاد رقَّته، وألفيته، بعد وقتٍ، يدندنُ لحن أغنية(يا للرجال، الأوغاد!) لم ألبث أن صحبته بدندنةٍ من صوتي، مدركةً أنَّ الأفضل في هذه الحال أن ألعبَ لعبةَ النزهةِ المبهجة في الأرياف.

في مضيِّ ساعة وصلنا إلى ثنيةٍ أرضية مشرفة، عند الأفق، على خطٍّ بلون القار: البحر، ولم يبق إلاّ أن نعبر جسر الخشب فوق الوصلة المحدَّبة، وسلوك خط الأشجار المصفرة الأوراق، إلى اليمين، ثمَّ الانعطاف، يمنةً، من بين المِصَرْ ثمَّ يُسرةً...

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إلى أن تظهرالـ «مالكونتونت»(*)، في شحوبِ نهار أحد ماصل، تماماً كما توقَّعت مصلحة الأرصاد الجوية! الـ «مالكونتونت» التي يليقُ بها إسمها لفرط ما بدت فاقدة المسرّات. فقد تراءت مساكنها أشبه بقطيعٍ من الخرافِ المتسخة البياض، على طولِ شاطئٍ خاكي أشبه ببزَّة جندي ميت قبالة بحر عاجز عن الحركة لزج، محبحب، رهين سكون خرافي مترجح حول نفسه مترجُح مثقالٍ حول عمودٍ من الرصاص. أمَّا القبَّة السماوية التي بدت كغطاءٍ مقبَّب شاسع رُبط من أطرافه الأربعة مثل منديل، فلا تتسع لسهوِ العينين في أمداء محتجبة بل تُولِّد انطباعاً لا أدري كيف أصفه سوى أنها تتكشَّفُ أحياناً، إذا ما تراخت غيمة، عن وجه الله الباهر في هنيهات من التبدّي والاحتجاب...

وقبالةَ المرآتين الهائلتين للبحر والسماء، وحيال عماهما المتوازي، تقفُ الأرضُ مُرسلةً رقة فوضاها ومروحة مظاهرها الفانية، الرحيمة: شريط الشاطئ، في الأسفل، الذي تنخره أمواج الشتاء؛ وحلقة النوارس السوداء حول قامة المنارة العتيقة؛ الصيّاد المتوحد، هناك، الذي يتوارى وجهه خلفَ القبَّعة المشمعة...

أي رغبة في الموت، استبدَّت بك، اذ ذاك، مِثْلَ تشنُّج في المعدة، يا عزيزتي البائسة العجوز يا آغاتا سوثبي!...

«يجب أن تقدّري موقفي، قال كورّو ملامساً خدي بطرف اصبعيه. يمكن القول إنَّ حياتي سعيدة نوعاً ما. إذا بدَّلتُ وضعي

(*) «Malcontente»: حرفيّاً، فاقدة المسرّة.

وعائلتي وعادتي، أموت. لذا لم أسع للاتصال بك، هذا صحيح، ولكنْ كيف لي أن أفعل؟ ذلك المساء، فوق رمل الشاطئ، جرت الأمور دون قصد أو عَمْد، مثل هذه الأمور تحدث بما يشبه الاختمار فتتركُ طعم المرّ في الفم.

ـ اعتبر المسألة منتهية، قلتُ بشيءٍ من البهجة. لست مجبراً على تبرير أي شيء. إنها تجربة كان ينبغي أن أخوضها بأية حال، وأنا ممتنّة لك. ولولاها لتقدّمتُ في السنّ وهاجسي أنني أجهل ما سأفقده، وُالذي تبيَّن لي، إذا صدقتُ القول، أنَّه ليس بالأمر المذهل كما كنتُ أتوقع...» أضفتُ، ختاماً، ببعض الخبث المتعمَّد.

كنا نسيرُ على الشاطئ؛ مياه داكنة تلامسُ أقدامنا؛ تعثرت قدماي فكدتُ أن أقع. أمسكني وضمني بإحدى ذراعيه وتابعنا السير على هذه الحال لبعض الوقت، مثل خطيبين تجمعهما شراكة غريبة، شراكة اللامبالاة: إذ ما عاد أحدنا مجبراً على تبرير أي شيء للآخر. فكان من الطبيعي أن نعودَ، معاً، إلى دائرة اهتماماتنا المهنية.

«إني قلق، قال كورّو، بشأن القضيّة التي تعرفينها جيّداً».

وقفتُ جامدة في موضعي، خرساء، أنتظر تتمة كلامه.

«كل هذه القضية تبدو لي غير واقعية. لقد خرجتُ منها مذهولاً ممّا رأيت ولكن خالي الوفاض. وحالما استيقظت في اليوم التالي، أحسستُ بأنني خُدِعْت. وانطباعي أنَّ كلَّ ما شهدته، باستثناء الدم، لم يكن سوى إخراج مدبَّر لإخراجٍ مدبَّر...

https://telegram.me/maktabatbaghdad

ـ ولكنْ حذار، أجبتُ قائلةً، فغالباً ما يقع منْ يظنّ نفسه كاذباً، على الحقيقة، ويبقى دائماً هنا وهناك بعض الأخطاء المطبعية التي لا ينبغي تصحيحها، فكم من الطواحين، على ما كان ميدار يقول، تبدو، في الظاهر، أنها عمالقة مزيفة، ليتضح إذا أمعنا النظر قليلاً أنها عمالقة بحقّ...

ـ أعلم، أعلم؟ وأعلم أنَّ من طبع ميدار أن يخلِّف وراءه دائماً رائحة سحر وبارود... ومع ذلك...

ـ لقد مات ميدار، قلتُ محتجة. ولا أعتقد أنَّ هناكَ أسباباً تخفيفيَّة أكثر من ذلك. فلن تطلب من مرتكب جريمة أو انتحار أن يلتزم بإحصاءات معهد الشرطة ومصنَّفات الطبّ الشرعي...

ـ هراء، أجاب فجأةً بنبرةٍ جافة. إن المصنَّفات تأتي على ذكر الحالات كافّة، العادية، وغير العادية. لا بل قد تُسهبُ في فذلكةِ هذه أكثر من تلك. والفارق الوحيد أنَّ في القضية التي نحن بصددها يكتسب غير العادي بوضوح طابع البداهة وبالعكس. ولكي أختم أقول إنني لطالما أبديتُ بعض التحفظ حيال الاستنتاجات التي توصلتِ إليها. صواب، خطأ، هذيان، لا أدري؟ كأنَّك قلَّدتِ حلماً على أملِ الفوز بالجائزة الكبرى...

ـ وأنا أيضاً، قلت معترفة، لم أكن مقتنعةً تماماً بما أقول. خصوصاً بعد أن سمعت ضحكته...»

أقلقه كلامي، فأطلعته على حكاية الرسالة المسجلة.

«أسأل نفسي باستمرار ممَّا كان يضحك، وممَّن، ربَّما مني أنا...

ـ هذا إذا سلَّمنا جدلاً بأنها ضحكته، قال كورّو معترضاً. فالضحكة لا صاحب لها ولا يمكن تمييزها عن ضحكة أخرى إلاّ بصعوبة بالغة. الضحكة ليست بصمة بالتأكيد. وقد تكون دليلاً على عته تهريجي. ومثل هذا قد يحدث قبل الموت، ويُطلقون في بلدي على هذا إسم «جذَل الموت».

راح يحدِّق بالشمس المنبثقة من كنف الضباب وقد بدت بيضويةً، ماصلةً، مثل بيضة مسلوقة. فأشار إليها بأصبعه قائلاً: «ثمَّ هل كان هو الجاني حقاً؟ لقد كانت تقارير الأرصاد الجويَّة تشير إلى طقسٍ غائم في ذلك اليوم على حوضِ البحر المتوسط... وعندما لا تكون حرارة الشمس مرتفعة فإنَّ كتلة الثلج قد تستغرق وقتاً أطول في ذوبانها... ثمَّ هل كانت كتلة ثلج، أم سبيكة أم مكعَّبات؟.

ـ تقصد...

ـ أقصد أنَّ ليس هناك ما هو مؤكَّد في هذه القضية. ألف فرضيّة، وكل واحدة منها أكثر جنوناً من الأخرى، تراودني الآن وتدور في رأسي. فلا استبعد، مثلاً، احتمال أن يكون شخص ما قد عَمَد، نظراً لقصور حرارة الشمس، إلى زحزحة التمثال بيده بدل الإتِّكال على قانون الجاذبية والسقطة الحرَّة للأشياء...

ـ أي زحزحة أشيل بضربة ذراع واستعجال سقوطه؟ ولكن مَنْ؟ وكيف؟ ولماذا؟.

ـ دَعْكِ من هذا!» بدا كورّو غير راغب في متابعة خطابه، فضلَّلتني حيرته. لا بل أخافتني. لمجرَّد التفكير ـ واعترف صراحةً بذلك ـ في احتمال الرجوع إلى نقطة الصفر: قرينة على

https://telegram.me/maktabatbaghdad

البراءة... ومشقة أن نجبه مجدَّداً بروز حقيقة أخرى، أكثر تماسكاً، ومن شأنها أن تبطل، أن تسخف الحقيقة السابقة. ومتى؟ حين أصبحت نسخ «لَبْس»، كتابي، تباع كما يباع الخبز.

«برغم ذلك، قلتُ في سرّي، ما من أحدٍ يقضي بقية عمره في السجن بسببي، وما من ضحيّة تعاقب على ما لا تستحقه. فأقصى الاحتمالات، وهذا ما استبعده، أن يكون هناك مذنب ما زال طليقاً. ولكن أين الأدلّة؟ ومن يكون هذا المذنب؟ وهل الأمر يستحقُّ أن يُكشف عن هويته؟ والجريمة المحتملة، ألا يُعقل أن تكون تطبيقاً لمبدأ «الموت الرحيم»؟.

ورحت أفكر مجدّداً في موتِ ميدار، في نبرة الهُواس في رسالتيه. فقد انطلقنا منهما، من رسالتي الميت، من تلك المكيدة المضاعفة، من السِّحر المخادع.

كان الغموض سائداً. وكورّو محقٌّ في ما قاله. إنَّ الشيء الوحيد وغير القابل للنقض هو دَمُ الميت، والميت نفسه بين أربع شموع ورأسه المضمَّد كمومياءِ كاتب ديوان مصري. الحياة حكاية، كان يردّد دائماً. حكاية، بلى، غير أنَّ شخصاً ما قد توقَّف عن سردها على مسامعه... ما من صوت سيوقظه الآن، ولا حتَّى انكسار المدِّ عِنْدَ أطرافِ الصخور، كمثل حفيف ألف مليون من الوريقاتِ في غابة، ولن يوقظه ألف مليون نفير، عند السادسة صباحاً، يوم الحساب...

«إني على مشارف الخمسين، قال كورّو؛ وهي السنُّ التي من بعدها يُصبح العيش مخاطرة، لما قد يعترضه من مخاطر الموت».

بالكادِ ابتسمت، فقد بدا الحزنُ مهدِّجاً صوته.

«لا شكَّ في أن ميدار فكَّر بنفس الطريقة» قلتُ محاولةً أن اهتدي إلى عبارة تحوِّم غائمة في رأسي وتليق بالمناسبة، غير أني لا أذكر منها سوى نتفٍ ربَّما كانت خاتمة بيت من الشعر، شيئاً من قبيل«تهربُ من الهلاك»، أو «تسعى إلى الموت هروباً من الهلاك». . . لوتاسّه؟ بتراركه؟ مَنْ يدري، فربَّما كان مجرَّد قولٍ ابتكرته بنفسي.

«انتحار متنكِّر في زيِّ جريمة قتل، قال كورّو. لقد توصلنا إلى هذا الاستنتاج. وماذا لو كان العكسُ صحيحاً؟ ماذا لو كانت الطاحونة عملاقاً بحقّ؟ ماذا لو كانت الجريمة قد نكِّرت في زي جريمة زائفة لتوهم بأنها انتحار؟».

كانت منارة النتوء الصخري التي لا تعمل خلال الصيف، تَغْمِزُ بوتائر منتظمة مخترقةً كثافةَ الضباب الوافد. كأنها تقول بلى، ولا، إجابة على كلِّ واحدة من فرضياتنا، وتشاطرنا انعدام اليقين بكلِّ يقين. . .

دونما قَصْدٍ مني استدرجته في سيري إلى الموضع الذي احتضن غرامنا الليلي. ولكن يستحيل أن نعثر عليه. لقد غيَّرت الأمواج والرياح معالم الأمكنة. ولم يبق أثر بشري واحد على الرمال التي تبتلعُ خطواتنا فتكشف في كل لحظة عن مِزَقِ جرائد، وفضلاتِ بلاستيكية متسخة، وسرطانات متخشِّبة على ظهورها بلا حراك.

«ما عدتُ أعرف لا ما أسعى وراءه ولا ما أريد، قال كورّو؛ مثلي كمثل الأَنْهُر العظيمة أغرقُ في الرملِ على مشارف

https://telegram.me/maktabatbaghdad

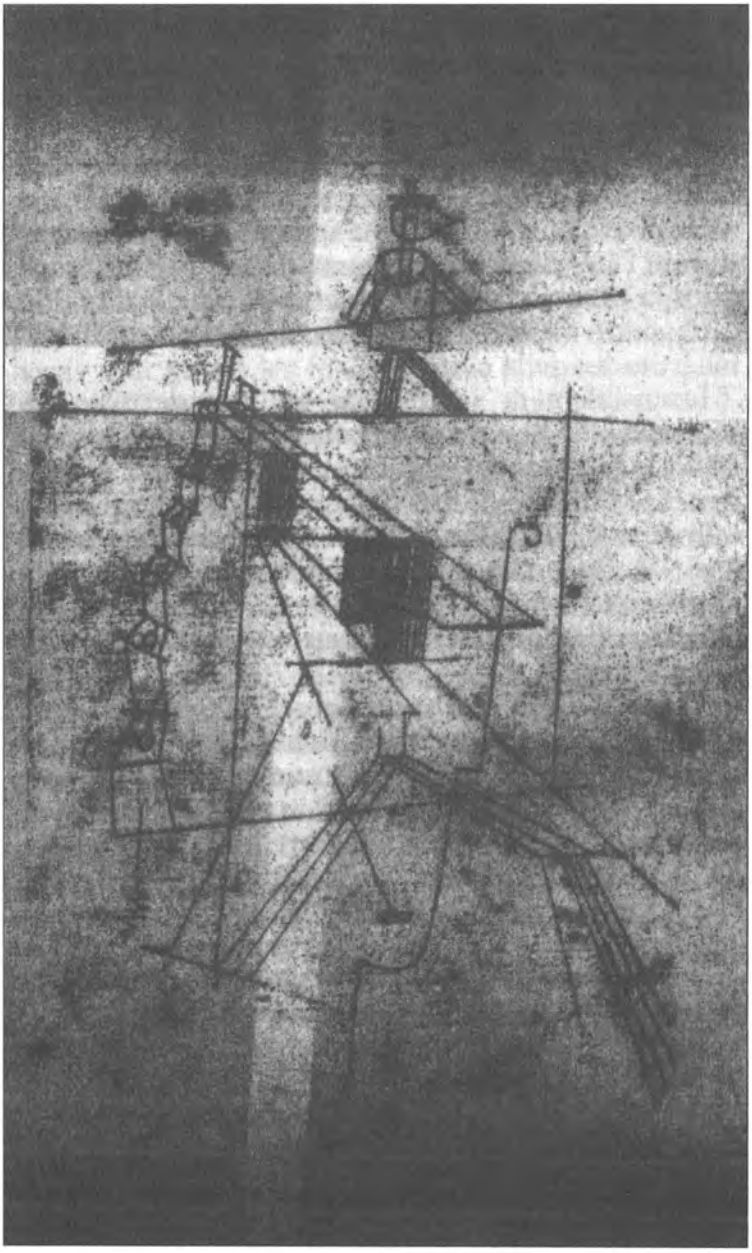

«تخيلي حبلاً بين غيمتين يسير عليه بهلوان...»

البحر. وليست فقط مهزلة موت ميدار، بل أيضاً كلّ ماضيّ ينسربُ الآن من بين أصابعي كشَعْرِ حورية رصيف... تخيَّلي حبلاً بين غيمتين يسير عليه بهلوان: مثله أجتازُ حبالَ أعوامي التي ترتخي إثر كلِّ خطوة من خطواتي... ما الذي ألمَّ بي يا صغيرتي إستير؟».

من يراهنني على أن الكوميسير كورّو على حافة البكاء؟ أمسكتُ بذراعه، ولم أدرِ ماذا أقول. فأردف قائلاً: «لقد قلت لك أن حياتي كانت سعيدة. كذبتُ. أشعر بأنها تؤلمني كلَّ صباح وكلَّ مساء، وأشعر، للمرّة الألف ربَّما، بأنني على حافة الانهيار، على حافة الغثيان والعدم... مرَّ عليَّ وقت كنت أريد فيه إحلال العدالة، تخيَّلي. وأُضمر شغفاً مدنياً مستقيماً كسيف: دوراندال، اكسكاليبور... كنتُ أعتقل المتظاهرين وأطلق سراحهم عند أوَّل منعطف. وكلّ صباح أفتح النافذة على مصراعيها مستعداً لرفع أيّ تحدٍّ: ففي الخارج تنتظرني جادة الحياة العريضة، جرس الحياة السماوي، النسائمُ الطافحة رجاءً، البيارق...».

قوطع كلامه بِدَوّي بعيد. حفنةٌ من الصيّادين يسترزقون، بطرقٍ غير شرعية، خلف النتوء الصخري. هزَّ رأسه وسارع إلى إنهاء بوحه: «لقد استسلمتُ أخيراً لبؤس جروحي، إذ أنهكني جُهْدُ المكابرة... وآثرتُ أن اقتطع لنفسي ملّيمتراً مكعباً في المعمعة الكونية لكي أموت فيه من العَبَث، مغطًّى بشرشف هائل مثل شراشف آموس...».

وراح يضحك: «إنها مجرّد دعابة، قال. يحلو لي أن أحكي بهذه الطريقة مرّةً كلَّ عام، بملء الفم مثلَ محامٍ قدير... وبأية

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حال فقد درست، لفترة، القانون. . . ثمَّ إني أقرأ تقارير كازابيني وهي تؤثّر بي».

سرنا صُعُداً باتجاه الڤيلات. ومن بعيد لمحتُ هايلا سيلاسي واقفاً عند طرف السلَّم المؤدي إلى البحر، وبدا سعيداً للقائنا مجدَّداً. يا لها من حياة كئيبة، قلتُ في سرّي، تلك التي يحياها هذا الرجل الذي يبقى وحيداً لحراسة المباني(فيما صُرف الآخرون أو تمَّ استدعاؤهم إلى المدينة) تحت السماء نفسها، أشبه بدلو ماء مقلوب وقبالته مشهد الأمواج المقيم. . . حياة تشبه حياة حارس المنارة، وهي بين المهن أشدّها وحشة وأكثرها روعة. . . غير أنّ هيلا سيلاسي غير مدرك، لطيبته، كلَّ هذا فلا يؤلمه؛ هَرَع مبتهجاً للقائنا، مُرحِّباً بما تيسَّر له من ألفاظ لغته المحليَّة. ثمَّ بمفرداته الإيطالية المضحكة دعانا إلى حجرته والتي صودف أنها الحجرة التي كنتُ أقطنها خلال الأحداث. كانت فرصة لأسأله عن المتاع الذي نسيته هنا، لكنَّه سارَعَ قبل سؤالي إلى الخزانة يفتحها فبدا مبذلي معلّقاً في داخلها وفي ركنٍ منها كدُست أعداد من جِيَبِ الكاوتشوك إلى جانب طارة وفوَط صحيّة وصَنْدَل مهترئ. . .

لم يكن منظر هذه الأسقاط المجتمعة مصدر افتخار لي في أعين الكوميسير الذكرية وكدت أن أرجع على أعقابي، لكنّي لمحتُ، بين الحاجيّات، الحقيبة الكبيرة ذات الحمَّالتين التي ظننتُ أني فقدتها والتي حالما رأيتها التمعت في ذاكرتي، في لمحِ خاطف، صورة ميدار، في المستودع، وهو يوصيني

بالاحتفاظ برزمة وضعها بيدي. كيف أنمحت من ذاكرتي؟ كيف نسيتها؟ فهرعت إلى الحقيبة وأخرجت الرزمة وفتحتها. كان الظرف الأصفر في داخلها مربوطاً بشريطين من المطّاط... «أوراق خاصة بالشركة» قال لي آكيلا. حقاً. تبادلنا أنا وكورّو نظرات تعجُّب خاطفة. نزعت شريطي المطاط وألقيت نظرةً إلى ما بداخل الظرف. والأحرى أن أقول: ألقينا نظرة. كان الظرفُ يحتوي ظرفاً آخر أصغر منه ومختوماً بحسب الأصول وقد دوِّن عليه؛ كما توقعت، إسم المرسل إليه: استير سكامبورينو؛ التسليم باليد.

أعدته إلى الحقيبة وغادرنا النجاشي نيغيستو بعد أن حيّيناه. لم ننبس بكلمة؛ لم نحثَّ خطانا. كنّا نسير على الطريق السريعة ببطء شديد حتّى أنّ سيارات الفيات 600 التي تتجاوزنا تُطلِقُ أبواقها منبِّهة إلى فوزها بالسباق الذي تخوضه معنا دون أن ندري. أخيراً، توقف الكوميسير عند فسحة مخصّصة للتوقف مطلة على البحر.

«هناك إذاً رسالة ثالثة، قال متفكراً. تبّاً له من مكّار»! غَمْغَم بَرَماً.

ترجلنا من السيّارة وأسندنا ظهرينا إلى الحائط الخفيض، والبحر وراءنا. سحبت الظرف من الحقيبة وفتحته وكنتُ أعلمُ من ملمسه أنه يحتوي عدة أوراق.

«هانحن مجدَّداً أمام اللغز، قلتُ بنبرةٍ يائسة. بعد لحظات ستُفتح الحلقة مجدداً وتعاود الأمور غموضها وترجُحها. أما هو فسيُعاود قهقهته المدويّة...».

https://telegram.me/maktabatbaghdad

حاولت جاهدةً أن أغمض عينيّ، لا أدري لماذا، وفي اللحظة نفسها (يا لتقلّبات الذاكرة وتلقائيتها المفاجئة!) عاودتني بكلّ وضوحها، تلك المحفوظة من عهد الدراسة الثانوية، والتي حاولت عبثاً أن استعيدها منذ بعض الوقت: «معتقدةً أنها تهربُ من الزراية بالموت...». لم تكن الكلمة الصحيحة هي «الهلاك» إذاً، بل «الزراية». وهي ليست من عبارات بترارکه، ولا للوتاسّه(*)...

إبتعد كورّو بضعة أمتار، وبدا أنّه لا يراني ولا يسمعني مستغرقاً في تأمل مياه البحر، مياه زرقاء قانية تصطفق برخاوة على الحافة الصخرية في الأسفل. مياه عجوز ومنهوكة مثلي أنا، كما غدوتُ من ساعةٍ فقط. «أفّ»! أفرغتُ رئتّي بزفرةٍ واحدة، وأعدت الأوراق، دون أن أقرأها، إلى الظرف الذي أمسكت به دونما حرصٍ بين إصبعين كما يُحمل عود ثقاب مشتعل. ثمّ لويتُ ساعدي قليلاً وأرخيتُ أصابعي الخمس، فهوى الظرفُ في مياه البحر الأبيض المتوسّط.

(*) بل لدانتي في «الجحيم» (18: 71) والعبارة تقول: «ونفسي التي أحسّت بالزراية وهي معتقدة أنها تهرب من الزراية بالموت، جعلتني غير عادل مع نفسي العادلة»(«الكوميديا الإلهية» ترجمة حسن عثمان)

https://telegram.me/maktabatbaghdad

تذييل
مع تنويعات مزاجية

حيث المؤلِّف يلتقط من سلَّةِ المهملات، قبل أن يغادر، نتفاً من فصلٍ محذوف ويُثبتها للقارئ بمثابة تمرين ذهني ولعب ابستمولوجي، مع الإذن، المُرفق، باجتياز الحواجز بين العلم والخرافة واللا معنى...

بعِبْرَةِ اللا إقناع، ربَّةُ الروايةِ الباقيةِ إلى الأبد.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

إذ تجاوزته سيارة فيات تيبو بيضاء: «مع أني» قال كورّو على سبيل الدعابة وإنْ أدركتُ في قرارة نفسي أنها ليست دعابة، «قلّدته، أنا نفسي، على أحسنِ ما قد يكون: الخطّ، الأسلوب، الروحيّة. . . ميدار، ثمانية عشر قيراطاً، ميدار. وأراهنكِ أنّك لما ميّزتِ الفرق. . .»

عند مدخل المدينة إذ أوقف السيّارة عند شارة حمراء: «لو أنّك غيّرتِ الأسماء في كتابك! قال كورّو شاكياً. فلحسن الطالع أنّ زوجتي لا تقرأ إلاّ صحافة الفضائح».

عند عتبة البيت وقد دسّ قدمه بين الصدعِ والباب لكي لا أتمكّن من إغلاقه: «ماذا لو أن المرافق بقي هناكَ في تلك الليلة. قال كورّو. ماذا لو كان هو مفتعل الحريق وسارق الباروكة؟ أو كان، ببساطة، هو القاتل؟»

خلال صعودنا الدَرَج: «لقد تمكّنت أغاتا الأخرى، قالَ ملمّحاً، من تدبُّر المسألة بقدر أكبر من البراعة. تذكرين «مقتل روجر أكرويد»، حيث الجاني هو الراوي؟»

متخففاً من ثيابه: «في المحصّلة الأخيرة، لاحظ كورّو، ونظراً لرواج كتابك وأرقام المبيع، يتضح أنّك أنتِ المستفيدة».

مرتدياً ثيابه: «إذاً؟ سأل كورّو. هل هذه المرّة أفضل من المرّة السابقة؟».

ـ بالتأكيد!» قلتُ كاذبة بحرارة.

بعد أن غادرني، خاطبني عبر الانترفون: «نسيتُ أن أخبرك بأنّه عُثِرَ على رسالة أخرى. كانت موجودة داخل الخزنة. ويقول الكاتبُ العدلُ أن...».

لم أسمع التتمّة فقد مرَّ باص.

https://telegram.me/maktabatbaghdad

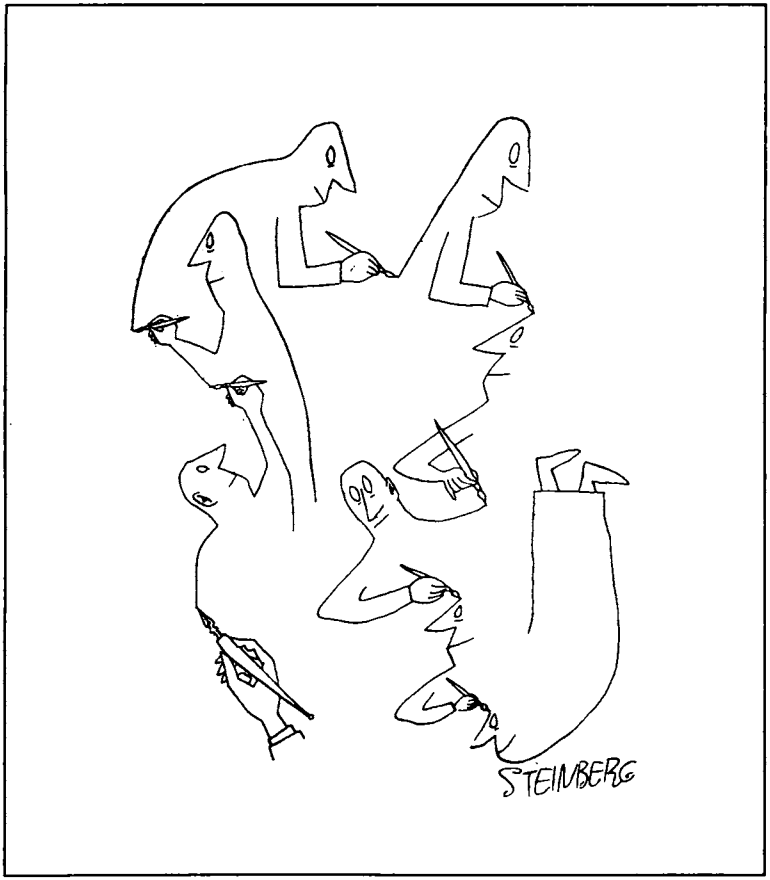
STEINBERG

https://telegram.me/maktabatbaghdad

المحتويات

الشخصيّات 5

الكاتب في سطور 7

I ـ منظر على البحر مع أشكالٍ ووجوه 9

II ـ رقصة الدبّ 25

III ـ إشعار بزلزالٍ وشيك 43

IV ـ الأداة التراجيديّة 59

V ـ مزادٌ مُدَبَّر 71

VI ـ ثَغَرات، مَزاعِم 85

VII ـ باغانيني يعزفُ مرّةً ثانية 99

VIII ـ عانس تقضي الليلَ ساهرةً 117

IX ـ لعبة الورقات الثلاث 135

X ـ الجثّة تقع في الفخّ 149

XI ـ منظر على البحر مع أشكالٍ ووجوه 165

تذييل مع تنويعات مزاجية 183

جيزوالدو بوفالينو

جيزوالدو بوفالينو مواليد كوميزو (صقلية) عام 1921؛ عمل في الجامعة مدرّساً للأدب المقارن، وفي الترجمة.

لدى صدور روايته «أكاذيب الليل» احتفى به النقّاد ووصفوه بأنّه «شكسبير صقلية» إشارةً إلى خياراته الأسلوبيّة واللغوية المميّزة. ويُعتبر إلى جانب شاشا وكالڤينو وموراڤيا، ممثلاً لاختبار مختلف وفريد في الرواية الإيطالية الحديثة.

لَبْس

بإيقاع متزامنٍ سارت بنا خطانا نحو الشاطئ. بسط ذراعه حول كتفي وراح يحدّثني عن نفسه فبادلته بالمثل إذ ألمّت بي نوبةٌ من المَرَح الأسيان. واحسستُ فجأة بالحاجة لأن استسلم للكلام، لأن أفضفض، وأروي سيرة حياتي، كلَّ حياتي... كيفَ طرأت هذه المأساة اللاعقلانية ونَقضتْ عليَّ هُدنةً من صفاءِ السريرة؛ وكم يعتصِرُ قلبي ألماً على صورة ذلك الناشر الممدَّد هناك في صالة الألعاب، صورة ذلك الحضور الساخر والموحش على غطاء الطاولةِ الأخضر، ولا أحد ليسهر عليه وبجواره.

مكتبة بغداد

لوحة الغلاف: اسكوبار ماريسول

المركز الثقافي العربي
ص ب ١١٣/٥١٥٨ بيروت- لبنان
ص.ب 4006 - الدار البيضاء-المغرب

https://telegram.me/maktabatbaghdad